أسماء الله الحسنى التي تدخل في باب علاقة المُكلفين بخالقهم

بعد أن استعرضنا أسماءَ الله تعالى التي تدخل في باب الولاية والنصر للمؤمنين، نأتي على ذكر الصنف السادس من أسماء الله الحسنى، وهو ما يدخل في باب علاقة المُكَلَّفين بخالقهم.

إن اللَّهَ جلّ وعَلا خلق مخلوقات كثيرة، وجعل مِن هٰذه المخلوقات أصنافاً حَيَّةً، ووهب بعض هؤلاء الأَحْياءِ بالإضافة إلى القدرة على السعي والحركة، وهَبهُم العَقلَ والإرادَةَ في حُدُودٍ ضَيِّقَةٍ، وحيثُ وهَبَهُم العقلَ والإرادة وجَّه إليهم التكليفَ بالأمر والنهي، أن يعرفوا خالِقَهم، ويسْلكُوا الصِراطَ المستقيمَ الذي يضمنُ لهم السَعادَة.

وبما أنّ الله وَحْدَهُ هو الذي له المِلْكُ الحقيقي التام على عباده، وهو الذي له الأمر والنهي، وعلى عباده معرفَتُه، والإيمانُ به وطاعَتُه، فقد أنزل بحكمته ورحمته للناس الشرائعَ لهدايتهم إلى معرفته وإرشادهم إلى صراط السعادة فأمرهم فيها بالصالحات، ونهاهم فيها عن السيئات، وكلَّفَهُم بالتزام الطاعَة، واجتناب المعصية، فإذا فعِلوا ذلك نالوا سعادَةَ الدُنيا والآخِرَة، ومن هنا جاء في المأثور من أسماء الله تعالى: (المَلِك، الهادي، الحَكَم، العَدْل، المُقْسِط، الحميد، الشكور، التوّاب، الغفور، الغفّار، العَفُوُّ، الحَليمُ، الصَّبُورُ، المُنْتَقِم)، ونشرح معاني هٰذه الأسماء الحسنى واحداً واحداً.

41 ــ المَلِكُ

معنى المَلِكُ

المَلِكُ ـ بكسر اللام ـ مِن المُلك ـ بضم الميم ـ أي المُتَصَرِّف بالأمر والنَهْي

في عباده قال الله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [طه: 114] وقد ورد هٰذا الاسم الكريم في القرآن في خمسة مواضع، كما جاء في الحديث الجامع لأسماء الله الحسنى الذي أخرجه الإمامان الترمذي والبيهقي.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام حُجَّةُ الإسلام وفيلسوفه أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى» في تفسير هٰذا الاسم: (هو الذي يَسْتَغْنِي في ذاتِه وصِفاتِه عن كل مَوْجُود، بل لا يستَغْنِي عنه شيءٌ في شيء، لا في ذاته، ولا في صفاتِه، ولا في وُجُودِه، ولا في بَقَائه، بَلْ كُل شيء فوُجُودُه منه أو ممّا هو منه، وكلُّ شيء سِواه فهو مملوك له في ذاته وصفاته. وهُوَ مُسْتَغْنٍ عَنْ كُلِّ شيءٍ، فهذا هو الملك المُطلَق.

العَبْدُ لا يُتَصوَّرُ أن يكون مَلِكاً مُطْلِقاً، فإنه لا يَسْتَغْنِي عن كل شيءٍ، فإنَّه أبداً فقيرٌ إلى الله تعالى، وإن استغنى عمّا سِواه، ولا يُتصوَّرُ أن يحتاج إليه كلُّ شيءٍ، بَلْ يَسْتغني عنه أكثر المَوْجُودَات، ولكن لما تَصَوَّرَ أن يَسْتَغْنِي عنْ بَعْضِ الأشياء، ولا يَسْتَغْنِي عن بعضِ الأشياء كان له شَوْبٌ في المُلْكِ.

فالمَلِكُ مِن العبادِ هو الذي لا يُمَلِّكُ إلا الله، بل يَسْتَغْنِي عن كل شيء سوى الله. وهو مع ذلك يملك مَمْلَكَتَهُ بحيث يُطيعه فيها جُنودُه ورَعاياه. وإنّما مَمْلَكَتُهُ الخاصَّةُ به هي: قَلْبُه، وقالَبُهُ. وَجُنْدُه هم: شَهْوَتُه، وغَضَبُهُ، وهَواهُ. وَرَعيَّتُه هم: لسانُه، وعَيْناهُ، ويَداهُ، وسائِرُ أعضائه، فإذا ملكها ولم تَمْلِكُهُ، وأطاعَتْهُ ولم يُطِعْهَا، فقد نالَ دَرَجَةَ المَلِكِ في عالَمِهِ.

فإن انْضَمَّ إليها اسْتِغْنَاؤه عن كلِّ الناس، واحتاجَ الناسُ كلُّهم إليه في حياتِهم العاجِلَةِ والآجِلَةِ، فهو المَلِكُ في العالم الأَرْضِي، وتِلْكَ رُتْبَةُ الأَنْبِياءِ عليهم السلام، فإنَّهم استَغْنَوا في الهداية إلى الحياةِ الآخِرَة عن كل أَحَدٍ إلّا عَنِ الله، واحْتاج إليهم كُلُّ أَحَدٍ، يَلِيهِم في هٰذا المُلْكِ العُلماءُ الذينَ هُمْ وَرَثَةُ الأنبياءُ، وإنّما مُلْكُهُمْ بِقَدْرِ قُدْرَتِهم على إرْشَادِ العِبَادِ، واسْتِغْنَائِهم عن الاسْتِرْشَادِ.

وبهٰذه الصفات يَقْرُبُ العَبْدُ مِن الملائكة في الصفات، ويَتَقَرَّب إلى الله

تعالى بها، وهٰذا المُلْكُ عَطِيَّةٌ للعَبْدِ مِنَ المَلِكِ الحَقِّ الذي لا مَثُوبَةَ في مُلْكِهِ.

ولقد صَدَقَ بعضُ العارِفين لمّا قالَ له بعضُ الأُمَراء: سَلْنِي حاجَتَكَ، قال: أَوَ لِي تقولُ هٰذا ولي عَبْدانِ هما سَيِّداك؟ قال: ومَن هُما؟ قال: الحِرْصُ، والهَوَى، فقد غَلَبْتُهما وغَلَباكَ، ومَلَكْتُهُمَا ومَلكاكَ.

وقال بَعْضُهم لشيخه: أَوْصِني، فقال له: كُن مَلِكاً في الدُنيا ومَلِكاً في الآخِرَةِ، فقالَ: وكيف؟ فقال: اقْطَعْ طَمعكَ وشَهْوَتَك عن الدُنيا، تكن مَلِكاً في الدنيا والآخرة، فإن المُلْكَ في الحُرِّيَّةِ والاسْتِغْنَاءِ). انتهى كلام الغزالي.

وقال الإمام المُحدِّث مجد الدين أبو السعادات المبارك بنِ محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» (وفيه حديث سَعْدِ بن مُعَاذ عند الشيخين البخاريِّ ومسلم في صحيحيهما: «لَقَدْ حَكَمْتَ فيهم بِحُكْمِ المَلِكِ» يريدُ اللَّهَ تعالى.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إنّ مَن عَلِمَ أن الله تعالى هو المَلِكُ الحاكِمُ الآمِرُ الناهي، وأنه يَعيشُ في مَمْلَكَتِهِ، وعلى رزقه وفضله، وأنه لا يخرُجُ عن قُدْرَتِهِ وحكمه وسُلطانه ورَقابَتِه، وعِلْمِهِ وسمعه وبصره، فإنّه يُخْضِعُ إرادَته لِحُكْمِهِ، ويَتَّبع شرعه ودستورَه في مملكته، ويُطيع أوامِرَه، وينتهي عما نهاه عنه، ولم يخالف حُكمَه وأمره، ولم يَعْصِه في شيء لعِلمه بقدرته على عُقوبته ومُجازاته، وقدَّم للمَلِك كُلَّ طاعَةٍ واحترام وتوقيرٍ وتعظيم، وهٰذا شأن المُؤمن في الدنيا، وأما الكافِر فإنه الذي يجحدُ المَلِكَ ولا يُقِرُّ له بالحُكم والسلطان ولا يُقدّمُ له الطاعة، فإنه سيتعرّض لعقوبَةِ الملك وغضبه لخروجه عن سلطانه وأمره وحُكمه.

42 ـ الحَكَمُ

معناه

الحَكَمُ ـ بِفَتْحَتَيْنِ ـ معناهُ: الحاكِمُ الذي لا مَرَدَّ لقضائِهِ، ولا مُعَقِّب لِحُكْمِهِ؛ لأنه يَضَعُ الأَحْكَامَ في مواضِعِها، بِعِلمه وحِكمَتِهِ. قال اللَّهُ تعالى في

سورة الأنعام: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأنعام: 114] فالناسُ جميع بين يَدَيْ التكليفِ الرَّبّاني أمامَ الحَكَمِ العَدْلِ المُقْسِط. وقد وَرَدَ هٰذا الاسم في موضع واحدٍ من القرآن الكريم، كما جاء في الحديث النبوي الشريف الجامع للأسماء الحُسْنَى الذي أخرجه الإمامان الترمذي والبيهقي من رواية أبي هريرة.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّةُ الإسلام وفيلسوفه الإمامُ أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: «المَقْصِدِ الأسْنَى في شرح أسماء الله الحسنى» في تفسير هذا الاسم: (الحَكَمُ هو الحاكمُ المُحَكَّمُ، والقاضي المُسَلَّم، الذي لا رادَّ لِحُكْمِهِ ولا مُعَقِّبَ لقضائه. ومِن حُكْمِهِ في حقِّ العِبادِ: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾﴾ [الانفطار: 13 ـ 14].

ومعنى البَرِّ والفاجِرِ بالسعادةِ والشَقاوَةِ أن يَجْعَلَ البِرَّ والفُجور سَبباً يَسُوقُ صاحِبَهُما إلى السعادةِ والشَقاوَةَ، كما جَعَلَ الأدْوِيَة والسُمومَ أسباباً تَسُوقُ مُتَناوِلِها إلى الشقاءِ والهَلاكِ.

وإذا كان معنى الحِكْمَةِ ترتيبَ الأسْبابِ وتَوْجِيهَها إلى المُسَبِّبات كان حَكَماً مُطلقاً؛ لأنه مُسَبِّبُ كُلِّ الأسْباب جُمْلَتِها وتَفْصِيلها.

ومن الحَكَم يَنْشَعِبُ القضاءُ والقَدَرُ. (فَقَضَاؤُه): تَدْبيرُه أَصْلُ وَضْعِ الأَسْبابِ لِيَتَوَجَّهَ إلى المُسَبِّبات، حُكْمَهُ ونَصْبُهُ الأسبابَ الكُلِّيَّةَ، الأَصْلِيَّةَ الثابِتَةَ المُسْتَقِرَّة، التي لا تَزُولُ ولا تَحُولُ، كالأرض والسمٰواتِ السبع، والكواكبِ والأفلاك، وحركاتها المتناسِبَةِ الدائمةِ التي لا تتغيَّرُ ولا تَتَقَدَّمُ، إلى أن يَبْلُغَ الكتابُ أَجَلَهُ، كما قال تعالى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: 12].

(وقَدَرُهُ): توجيهُ هذه الأسباب: بتَحريكاتِها المتناسِبَة المَحْدُودَةِ المَقْدُورَةِ المَحْسُوبَةِ إلى المُسَبِّباتِ الحادِثَةِ منها لَحْظَةً بَعْدَ لَحْظَةٍ.

(فالحُكْمُ): هو التَدْبِيرُ الأَوّلُ الكُلِّيُ، والأَمْرُ الأَوّلُ الذي هو كَلَمْحِ البَصَر.

(والقضاءُ): هو الوَضْعُ الكُلِّيُ للأسْبابِ الكُلِّيَة الدائمة.

(والقَدَرُ): هو تَوْجِيهُ الأسبابِ الكُلِّيَةِ بَحَرَكاتِهَا المُقَدَّرَةِ المَحْسُوبَةِ إلى مُسَبَّباتِها المَحْدُودَةِ المَعْدُودَةِ بِقدْرٍ مَعْلُومٍ لا يَزِيدُ ولا يَنْقُصُ.

ولذلك لا يَخْرُجُ شَيْءٌ عن قَضاءِهِ وقَدَرِهِ، ولا يُفْهَمُ ذلِكَ إلّا بِمثالٍ: ولَعَلَّكَ شاهَدْتَ الساعات التي تُحدِثُ طنيناً والتي بها يُتَعَرَّفُ أوقات الصَّلاةِ، وما فيها من آلات وكيفية عملها، وكلُّ ذلك بتقدير مِقدار سببٍ لا يزيد ولا ينقص، فإذا تصوَّرتَ كيفية تشغيلها فاعلَمْ أن واضِعَها يحتاجُ إلى ثلاثة أُمُور:

(أولُها): التَدْبِيرُ، وهو الحُكْمُ بأنه ما الذي يَنبغي أن يكونَ مِن الآلات والأسباب والحركات حتّى يُؤَدِّي إلى حُصولِ ما ينبغي أن يَحْصُلَ، وذلك هو الحَكَمُ.

(والثاني): اتّحاد هٰذه الآلات التي هي الأصول، وذلك هو القضاءُ.

(والثالثُ): نَصْبُ سَبَبٍ يوجِبُ حَرَكَةً مُقَدَّرَةً مَحْسُوبَةً مَحْدُودَةً وهو حدوث الطنين في وقتٍ مُعَيَّن لتنبيه الحاضرين وإسْماعِهم، وكل ذلك يكونُ بِقَدَرٍ ومِقْدَارٍ مُقَدَّر.

فإذا فهمتَ أنّ الآلاتِ أُصولٌ لا بدّ للحركَةِ منها، وأنَّ الحَرَكَةَ لا بُدَّ مِن تقدُّرِها ليتقَدَّرَ ما يتولَّدُ مِنها، فكذلك فافهم حصولَ الحوادِث المُقَدَّرَةِ التي لا يَتَقَدَّمُ منها شَيْءٌ، ولا يَتَأَخَّرُ إذا جاءَ أجَلُها ـ أي حضر سَبَبُها ـ وكلُّ ذلك بِمِقْدَارٍ مَعْلُومٍ، وأَنَّ اللّٰهِ بالِغُ أمْرِهِ، إذ جَعَلَ اللّٰهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً.

فَالسمٰواتُ، والأَفْلاكُ، والكَواكِبُ والأَرضُ والبَحْرُ، والهَواءُ، وهٰذه الأَجْسَامُ العِظامُ في العالَم كَتِلْكَ الآلات.

وهناك سَبَبٌ مُحَرِّكٌ للأفلاكِ والكواكِب والشمسِ والقمر بِحسابٍ مَعْلُومٍ قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ۝٥﴾ [الرحمٰن: 5].

وإفضاءُ حَرَكَةِ الشمسِ والقَمَرِ والكواكبِ إلى حُصُولِ الحَوادِثِ في الأرض كإفضاء الآلات داخل الساعة إلى حصول الحركة المُفْضِيَةِ الى الطنين لمعرفة انقضاء الساعَة. ومِثالُ تداعِي حركات السماء إلى تغيّرات الأرض: هو أن الشمسَ بَرَكَاتُها إذا بَلَغَتْ إلى المَشرِقِ اسْتَضاءَ العالمُ وتَيَسَّرَ على الناسِ الإبصارُ، فَيَتَيَسَّرُ عَلَيْهِم الانتشارُ في الأشغال. وإذا بَلَغَت المَغْرِبَ تَعَذَّرَ عليهم ذلك، فَرَجَعُوا إلى المَسَاكِنِ، وإذا قَرُبَتْ مِن وَسْطِ السَماءِ، وسَمَت رؤوسَ أَهْلِ الأقاليم، حَمِيَ الهَواءُ، واشْتَدَّ القَيْظُ، وحَصَلَ نُضْجُ الفواكِه. وإذا بَعُدَت حَصَلَ الشِتاءَ، واشتدَّ البَرْد. وإذا توسَّطَتْ حَصَل الاعتِدالُ، وظَهَرَ الربيعُ، وأَنْبَتَتِ الأرضُ، وظهرت الخُضْرَة، فَقِسْ بهٰذهِ المشهورات التي تعرفها الغرائبَ التي لا تعرِفُها، واختلافُ هٰذه الفُصولُ كَلُّها مُقَدَّرٌ مَعْلُومٌ؛ لأنَّها مَنُوطَةٌ بحركاتِ الشمسِ والقَمَرِ قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ۝٥﴾ [الرحمٰن: 5] أي حركاتُهما بحُسْبَانٍ معلوم.

فهٰذا هو التقدير، ووضْعِ الأسْبابِ الكلِّيَّة هو القضاءُ. والتَدْبِيرُ الأَوَّلُ، الذي هو كلمح البصر هو الحُكْمُ. واللَّهُ تعالى حَكَمٌ عَدْلٌ باعتبار هٰذه الأمور. وكما أن حركة آلات الساعة ليست خارجة عن مشيئة واضع الآلة، بل ذلك هو الذي أَرادَه بِوَضْعِ الآلة، فكذلك كل ما يحدُث في العالم من الحوادِثِ سرِّها وخيرها، نفْعِها وضرّها، غيرُ خارِجٍ عن مشيئة الله تعالى، بل ذلك مُرادُ اللَّهِ تعالى، ولأَجلِهِ دبَّر الأسباب، وهو المَعْنِيُّ بقوله: ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٩﴾ [هود: 119].

الرضا بِحُكْم الله

المؤمنُ مأمور باتخاذ الأسباب المادِّيَّةِ التي أَمَرَ اللَّهُ باتِّخاذِها لتحقيق النتائج المطلوبة التي تقع ضمن دائرة المسؤولية والتكليف، وبعد اتخاذِ الأسباب يتوكَّلُ على اللَّهِ ويعتمد عليه في تحقيق مُرادِهِ، بتيسير الأسباب الكفيلة بتحقيق هٰذا المُراد، ولكن الإنسان قد يَجهَلُ مصلحَتَهُ لعدم معرفته بالغيب واطلاعِهِ على ما قدَّره له منذ الأزل، فقد يتحقّق مُرادُه وقد لا يتحقّق، فإذا تحقّق ما أراده شكر اللَّهَ على توفيقه وتيسيره أسباب التوفيق والنجاح، وإذا لم يتحقّق مُرادُه فما هو الموقف الواجب عليه اتخاذه؟ يرشدُهُ اللَّه تعالى إلى حسن الظن والاعتقاد به بأنه

يعلم أين يكون خيره، ونفعه بقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

حين لا تتحقق النتائج المرْجوَّة بعد اتخاذ الأسباب المُسْتطاعة، يلاحِظُ المؤمن أن اللَّهَ قد قضى له ما هو خير، وادَّخَرَ له الأَفْضلَ والأحسن، فهو يَسْتَقْبِلُ عدمَ تحقيق النتائج بمِثْلِ استقباله لهما فيما لو تحقَّقَتْ، وهكذا يكون مُطمئِنَّ القَلب راضِياً ويكون في أعماله باذِلاً أقصى ما يستطيع، مُتفائلاً بأن اللَّهَ لا يقضي له إلّا ما هو خير. فالتوكّلُ على اللَّهِ، والاعتمادُ عليه، والاستعانةُ به أُمورٌ مِن أعمالِ قلبِ المؤمِن، فإذا امتلأ بها قَلْبُ المُؤمِن وهو يباشِرُ الأسبابَ المادِّيَّة على مِقْدار استطاعته، ازدادَت قُوَّتُه المعنويةُ في الانْدِفاعِ لتحقيق النتائج المَرْجُوَّة، ثقةً منه بأنَّ اللَّهَ يُسَدِّدُه ويُؤيِّدُه وسَيُحَقِّقُ له ما يرجو إذا عَلِمَ أنّ فيه الخير.

أثر اسمِ اللَّهِ الحَكَم على العَبْد

وهكذا فإن المؤمِنَ العاقِلَ متى صَحَّ فَهْمُه لحقيقة القضاءِ والقَدَرِ واستسلم لحُكم الله ورضي به، وامْتَلأَ قَلْبُه عقيدةً بأن كلَّ ما يَجْري له مِن نِعَم، وما ينزلُ عليه من مصائِب، أَمْرٌ مَحْتُومٌ مَرْسُومٌ، مُرادٌ لله تعالى، مَقْضِيٌّ بقضائِه، مُحَدَّدٌ بتقديره، مُنَفَّذٌ بِقُدْرَتِهِ، وراقَبَ مَع ذلك صِفاتِ اللَّهِ العظيمة التي منها: عِلْمُهُ وحِكْمَتُهُ، ورَحْمَتُه وعَدْلُهُ، ثم مَتَى آمَن بهٰذا وفَهِمَهُ فَهْماً صحيحاً اطمأنَّ قلبُه لكل ما يجري في الكون ممّا لا كَسْبَ له فيه، ورضيَ بمُرادِ اللَّهِ مَهْمَا كان ذلك الأَمْرُ مُحْزِناً أو مُسِرّاً، وانتقل مِنَ الأَسْبابِ إلى مُسَبِّبها، فارتَقَى في سُلَّم مَحَبَّةِ اللَّهِ والقُرْب منه.

وصَدَقَ القائل إذْ يقولُ لِمَمْدوحِهِ: «فما لِجُرْحٍ إذا أَرضاكُمُ أَلَمُ» إنَّ المُؤمنَ الصادِقَ، وهو في مَقام حُبِّهِ لِرَبِّه، حَرِيٌّ بأن يقولَ مُطمئِنَّ القَلْبِ: «رَضيتُ باللَّهِ تعالى رَبّاً، وبقضائِه حُكَماً، إنَّهُ وليّي، وهو حَسْبي ونِعْمَ الوكيل» وبذلك يُفرِغُ اللَّهُ على قَلْبه مَعانٍ من السعادَةِ لا يَجدُها في شيءٍ آخرَ مِن مَحابِّ الدُنيا ومَسَرَّاتِها.

ولمّا تَحلَّى المُسْلِمُونَ الأَوَّلون بهٰذه العَقيدَةِ، كانوا سادَةً وقادَةً، وكانوا خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَت للناسِ، وتحقَّقَتْ لهم السَعَادَةُ العُظْمَى في الدُنيا والآخِرَة.

ولما وَضَحَت هٰذه العقيدة في نفس عُمَرَ ﷺ قال: «لَا أُبالي على أيِّها أُصبحُ أو أُمْسِي، على ما أُحِبُّ أو على ما أكرَهُ؛ لأنني لا أدري أيهما خيرٌ لي».

وصَدَقَ رسولُ اللَّه ﷺ حين قَال فيما رواه عنه الإمام مسلم في الزهد من «صحيحه» عن صهيب الرُّوميّ ﷺ: «**عَجَباً لأمر المُؤمن، إن أَمْرَه كلَّه له خيْرٌ، وليس ذلك إلا للمؤمن إنْ أصابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فكان خيراً له، وإن أصابَتْهُ ضرّاءُ صَبَرَ فكان خَيراً له**».

هٰذا من جهة ما يَدْخُلُ في دائِرة حُكْم اللَّهِ وقضائه وقدره.

وأما ما يدخلُ ضمن دائرة كَسْبِ الإنسان، فإن المؤمِنَ الصَّادِقَ إنْ وَجَدَ مِنْ نَفْسِهِ الاستِقَامَةَ والطاعَةَ وابتغاءَ مرضاةِ اللَّهِ في أعمالِهِ، فإنه يَحْمَدُ اللَّهَ على تَوْفيقه، ويَشْكُرُهُ على ما أنْعَمَ عليه مِن فضل. وإن وَجَدَ من نفسه غيرَ ذلك، عادَ عليها باللَّوْم والتثريبِ والنَدَم، والحُزنِ الشديدِ على ما فرَّط في جَنْبِ اللَّهِ، ثم يُقْبلُ على ربِّه تائباً مُنيباً، مُسْتَغْفِراً مِنْ ذَنْبِهِ، ذاكِراً قولَ اللَّهِ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: 222].

مسؤولية الإنسان عن أعماله

حين يَتِمُّ للمسلم التصوُّرُ الصحيح لمفهوم حُكْم اللَّهِ بالقضاءِ والقَدَرِ، وَفْقَ ما جاء في كتاب اللَّهِ وسُنَّةِ رسوله ﷺ، ووَفْقَ الفَهْم الذي كان عليه السلفُ الصالِحُ وأدركه أهلُ السُّنَّةِ والجماعة فإنه لا يَخلِطُ بين مواقِع المسؤولية الإنسانية وما يَجْرِي بِمَحْضِ القضاء والقَدَرِ.

أما ما يَجْرِي بمَحْضِ القضاء والقَدَرِ فإنه يَسْتَقْبِلُهُ بالتسليم والرضَا، ويَعْلَمُ أنَّه عينُ الحِكْمَةَ التي اقتضتها إرادَةُ الحكيم العَلِيِّ العَليم. وأما ما يقعُ في دائرة المَسُؤولية الإنسانية فإنه يباشِرُ فيه الأَسْبَابَ التي اقتضتها سُنَّةُ اللَّهِ في كونه، وأمر به الله فيما أنزل على رسوله من التشريع، ويحاسِبُ نفسه ويُحاسِبُ الآخرين وَفْقَ حُدودِ المسؤولية التي ناطها اللَّهِ بالمُكلَّفين منْ عِبادِهِ.

فلا يُلْقِي نَفْسَهُ في التَهلُكَةِ اعتماداً على ما تَقْضِي به المَقادِيرُ الرَّبَّانِيَّة؛ لأنّ هذا مِنْ حُدودِ المَسْؤوْلِيَّةِ الإنسانيةِ. ولا يتركُ أسبابَ الكسْبِ التي أمَرَ اللَّهُ تعالى

بها، اعتماداً على ما تقضي به المَقادِيرُ الربَّانيَّةُ في الرزق؛ لأن مباشرة أسباب الكسب من حدود المسؤولية الإنسانية ولا يترك الجهاد في سبيل الله لنصر دين الله، ورد كيد أعداء الله، اعتماداً على ما تقضي به المقادير الربانية، مِنَ النصر والهزيمة؛ لأن القِيامَ بواجب الجهاد في سبيلِ اللَّهِ من حُدود المَسْؤولية الإنسانية، ولا يترك إعداد المُسْتطاع من القُوَّة، اعتماداً على قوَّةِ اللَّهِ القادر على نصر أوليائه على أعدائه؛ لأن إعداد المُسْتطاع من القوة العسكرية البشرية من حُدودِ مسؤولية المسلمين. وهكذا إلى سائر الأسباب التي تقع ضمن حدود المسؤولية الإنسانية.

بهٰذا الفهم السَّليم والعَمَل السَبَبِي الذي أوجبه اللَّهُ على الناس وَجَعَلَه مِن سُنَنِ كَوْنِهِ، ظَفَرَ المسلمون الأَوَّلون بالمجد العَظيم، واحتلّو مركز قيادَةِ الناس إلى الحق. قال رسول الله ﷺ: «**كُلُّكُمْ رَاعٍ وكُلُّكُمْ مَسْؤولٌ عَن رَعِيَّتِهِ**»، وقال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات: 24].

43 ــ العَدْلُ

معناه

هو في الأصل مَصْدَرٌ أُقيم مقامَ اسم الفاعل الذي هو العادِلُ للمُبالَغَةِ، فمعنى اسم اللَّهِ العَدْلِ: أنه البالِغُ في العَدْلِ غايَتَه. فهو الذي لا يَظلِمُ أحداً في تقرير عِقابٍ عليهِ لا يَسْتَحِقُّهُ، أو بِحِرْمَانِهِ مِنْ أَجْرٍ هُوَ لَهُ، بِحَسَبِ وَعْدِهِ الصادِقِ.

وفي معنى أنه عادِلٌ لا يَظلِمُ أحداً، قال اللَّهُ تعالى في مُحكم كتابه الكريم: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: 49] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: 90].

ولم يَرد هٰذا الاسم بهٰذه الصيغة في القرآن الكريم، وإنما جاء في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللَّهِ الحسنى الذي رواه أبو هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ وأخرجه الإمامان الترمذي والبيهقي.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام حجّة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي

الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المَقصِد الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: «العَدْلُ معناه العادِلُ، وهو الذي يصدُرُ منه فعل العَدْلِ المُضادّ للجور والظلم. ولَنْ يعرف العادِلِ مَن لم يَعْرِفْ عَدْلَه. ولا يعرِفُ عَدْلَهُ مَن لم يَعرِفْ فِعْلَه. فمن أرادَ أن يَفْهَمَ هٰذا الوصف فينبغي أن يُحيطَ عِلْماً بأفعال اللَّهِ تعالى مِن أَعْلَى مَلكوت السمٰوات إلى منتهى الثَرَى، حتّى إذا لم يَرَ في خلق الرحمٰن مِن تفاوت، ثم رَجعَ البَصَر فما رأى مِن فُطور، ثم رَجعَ البَصَرَ مَرَّةً أخرى فانْقَلَبَ البَصَرُ إليه خاسِئاً وهو حَسِيرٌ، وقد بَهَرَهُ جمالُ الحضرة الرّبوبية وحَيَّرهُ اعتدالها وانتظامُها، فعند ذلك يعشق بفهمه شيئاً من معاني عَدلِ اللَّهِ تعالى.

وقد خلق اللَّهُ أقسامَ المَوْجُودات: جِسمانِيِّها وروحانِيِّها، كاملها وناقصها، وأعطى كلَّ شيء خلقه، وهو بذلك جواد، ورتَّبه في موضعه اللائِق به، وهو بذلك عدلٌ.

فمن الأجسام العِظام في العالم: الأرض، والماء، والهواء، والسمٰوات والكواكب، وقد خلقها ورتّبها، فوضع الأرضَ في أَسْفَلِ السافِلِين، وجَعَلَ الماءَ فوقها، والهواءَ فوقَ الماءِ، والسمٰوات فوق الهواء. ولَو عكس هٰذا الترتيبَ لَبَطَلَ النِظامُ.

ولعلّ شرح وجهِ استِحْقاق هذا الترتيب في العَدْلِ والنظام مما يَصْعُبُ على أكثر الأفهام. فلننزل إلى دَرَجَةِ العوامّ ونقولُ: لينظر الإنسانُ إلى بَدَنه، فإنه مركَّبٌ من أعضاء مُختَلِفَةٍ، كما أن بَدَنَ العالَم مُرَكَّبٌ مِن أجْسَام مختلفة، فأوّل اختلافه أن ركَّبَهُ من العَظم واللحم والجلد، وجَعَلَ العظامَ عماداً مُسْتَبْطِناً، واللحمَ صِواناً له مُكْتنِفاً إياه، والجِلْدَ صِواناً لِلَّحْم. فلو عكس هٰذا الترتيب، وأظهر ما أبطَن لَبَطَلَ النظام.

وإن خَفِيَ عليكَ هٰذا، فقد خَلَقَ للإنسان أعضاءً مختلفة مثل: اليَد، والرِجْل، والعَيْن، والأنف، والأُذن. فهو بخلق هٰذه الأعضاء جوادٌ. وبوضعها في مواضعها الخاصَّة عَدْلٌ؛ لأنه وضع العَيْن في أولى المواضِع بها من البَدَن، إذ لو خَلَقَها على القفا، أو على الرِجْل، أو على اليد، أو على قِمّة الرأس، لم يَخْفَ ما يتطرَّق إليها من النقصان والتعرض للآفَة. وكذلك علَّقَ اليدين من

المنكبين، ولو علقهما من الرأس، أو من الحقو، أو مِن الركبتين، لم يَخْفَ ما يَتَوَلّدُ منه مِن الخَلَلِ. وكذلك وضعُ جميع الحواسّ على الرأس، فإنّها مداخل المعرفة لتكون مشرفة على جميع البدن، فلو وضعها على الرِجْلِ اختَلَّ نِظامُها قطعاً، وشرح ذلك في كل عُضْوٍ يَطول.

وبالجملة فينبغي أن تَعْلَم أنه لم يخلُق شيئاً في موضعه إلّا لأنه مُتَعَيِّنٌ له. ولو تيامَن عنه، أو تياسَر، أو تَسَفَّل، أو تعالى لكان ناقصاً، أو باطِلاً، أو قبيحاً خارجاً عن التناسب كريهاً في المَنْظر. وكما أن الأنفَ خُلِقَ على وَسَطِ الوَجْهِ، ولو خُلِقَ على الجَبْهَةِ أو على الخَدِّ، لَتَطَرَّقَ نقصانٌ إلى فوائِدُه.

وإذا قوِيَ فهمك على إدراك حكمته فاعلم أن الشَمسَ أيضاً لم يخلقها في السماء إلّا بالحق، وما وضعها إلّا موضِعَها المُسْتَحِقّ لها بحصول ما قَصَدَهُ منها. إلا إنك ربّما عجزت عن دَرْكِ الحكمة فيه؛ لأنّك قليل التفكير في ملكوت السمٰوات والأرض وعجائبها، ولو نظرتَ فيها لرأيتَ من عجائبها ما تَستحقِرُ فيها عجائبَ بَدَنِكَ، وكيفَ لا وخَلْقُ السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس؟!

وليتَكَ وفّيتَ بمعرفة عجائب نفسك، وتفرّغتَ للتأمُّل فيها، وفيما يكتنفها من الأَجْسام، فتكون ممَّن قال اللَّهُ فيهم: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [فصلت: 53] ومِن أينَ لك أن تكونَ مِمَّن قال اللَّهُ فيهم: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ [الأنعام: 75] وأنى تُفتَّح أبواب السماء لمن اسْتَغْرَقه همُّ الدنيا واستعبده الحرصُ والهَوَى؟!

فهٰذا هو الرمْزُ إلى تفهيم مبدإ الطريق إلى معرفة هٰذا الاسم الواحِد. وشرحه يفتقر إلى مجلدات، وكذلك شرح معنى كل اسم. فإن الأسامي مشتقّة من الأفعال لا تفهم إلا بعد فهم الأفعال. وكل ما في الوجود من أفعال الله، ولن تحيطَ عِلماً بتفصيلها، فإنه لا نهاية لها. وأما الجملة، فللعبد طريق إلى معرفتها، وبقدر اتّساع معرفته فيها يكون حظّه من معرفة الأسماء. وذلك يَسْتغرقُ العلومَ كلَّها، وإنما غايتنا الإيماءَ إلى مفاتِحها ومعاقد جمّها فقط.

وحظّ العبد من العَدْل لا يخفى، وأول ما عليه من العدل من صفات نفسه، وهو أن يَجْعَلَ الشَهوَة والغَضَب أسِيرَيْن تحت إشارة العقل والدين، ومهما جعل

العقلَ خادِماً للشهوة والغضَب فقد ظلم. هٰذا جملة عدله في نفسه، وتفصيلُه مُراعَاةُ حُدودِ الشَّرْعِ كُلِّه. وعَدْلُه في كلِ عُضْوٍ أن يَسْتَعْمِلَهُ على الوَجْهِ الذي أَذِنَ الشرعُ فيه.

وأما عدْلُه في أهلِه وذُرِّيَّتِهِ، ثم في رَعِيَّتِهِ إن كان مِن أهل الحُكم فلا يَخْفَى. وربَّما ظنَّ أن الظُلْمَ هو الإيذاءُ، والعدلُ هو إيصالُ النفع إلى الناس، وليس كذلك، بل لو فتح الملِكُ خزائنه المشتملة على الأسلحة والكُتب وصُنوفِ الأموال، ولكن فرّق الأموال على الأغنياء، ووهب الأسلحة إلى أهلِ العلم، ووهب الكتبَ إلى الأجناد فقد ظلم وعَدَل عن العدل إذ وضع كل شيء في غير موضعه اللائق.

44 ــ المُقْسِطُ

معناه

مأخوذ من أَقْسَطَ: إذا انْتَصَفَ للمظلوم، وأزالَ الجَوْرَ عنه. فيكونُ معنى هٰذا الاسم: الذي يَعْدِلُ بين الخلائق فيما يجرِي بينهم من تظالُم.

أما القاسِطُ، المأخوذ من الفعل قَسَطَ ـ بدون همز ـ فهو الظالِمَ الجائر؛ لأن معنى قَسَط: جارَ.

فمِنَ المُقْسِط قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة: 43].

ومِن القاسِط، قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾﴾ [الجن: 15].

وفي معنى أنه عَدْلٌ مُقْسِطٌ قال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾ [آل عمران: 18] ولم يَرِدْ هٰذا الاسم لله تعالى في القرآن الكريم، وإنما وَرَدَ في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى الذي رواه أبو هريرة ﷺ وأخرجه الإمامان الترمذي والبيهقي، كما أجمع عليه العلماء.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام حُجّة الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي: رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هٰذا الاسم في كتابه «المَقْصِد الأسنى في تفسير أسماء الله الحسنى»: (المُقْسِطُ هو الذي يَنْتَصِفُ للمظلوم من الظالِم. وكماله في أن يُضيفَ إلى إرضاء المَظلوم إرضَاءَ الظالم. وذلك غايةُ العدل والإنصَاف، ولا يقدرُ عليه إلّا اللَّهُ تعالى. مثاله ما أخرج الحاكم النيسابوري في «المستدرك على الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه: أن النبيَّ ﷺ بينما هو جالس إذْ ضَحِكَ حتى بدت ثنٰاياه، فقال عمر: بأبي أنتَ وأمّي يا رسولَ الله، ما الذي أضحكك؟ قال: **«رجلان مِن أمّتي جثيا بين يدي ربّ العِزّة، فقال أحدُهما: يا ربِّ خُذْ لي مَظلَمَتِي مِن هٰذا»**. فقال اللَّهُ ﷻ: **«رُدَّ على أخيكَ مظلمتَه، فقالَ: يا ربِّ! لم يَبْقَ مِنْ حَسناتي شَيْءٌ»**، فقال ﷻ للطالب: **«كيف تَصْنَعُ بأخيك ولم يَبْقَ مِن حَسناتِهِ شيءٌ؟ فقال: يا رَبِّ! فَلْيَحْمِلْ عَنِّي مِن أَوْزارِي»**، ثم فاضَت عينا رسولِ اللَّهِ ﷺ بالبكاء وقال: **«إنّ ذلك لَيَومٌ عَظيمٌ، يَوْم يحتاجُ الناسُ إلى أن يُحملَ عنهم أوزارُهم»**، قال: **فيقولُ اللَّهُ ﷻ** ـ أي للمُتظلِّم ـ **ارفع بصرك فانظر في الجنان، فقال: يا رب! أرى مَدائِنَ مِن فِضَّة، وقصوراً من ذهب مُكلَّلة باللؤلؤ، لأيِّ صِدِّيقٍ أو لأيِّ شهيدٍ هٰذا؟ قالَ اللَّهُ ﷻ: لِمَنْ أَعْطى الثمن، فقال يا ربِّ! ومَن يَملِكُ ذلك؟ قال: أنتَ تملِكُه. قال: يا رب! بماذا؟ قال: بعفوك عَن أخيكَ. قال: يا رَبِّ! قد عفوتُ عنه. قال اللَّهُ ﷻ: خذ بيَد أخيكَ فأدْخِلْهُ الجنَّة.** قال ﷺ **«اتَّقُوا اللَّهَ وأصلِحُوا ذاتَ بَيْنِكم، فإنّ اللَّهَ تعالى يُصْلِحُ بَيْنَ المؤمنين يوم القيامة»**.

فهٰذا سبيل الانْتِصاف والإنصاف. ولا يقدر على مثله إلّا ربُّ الأرباب.

وأوْفر العَبيد حَظاً مِن هٰذا الاسم مَن يَنتصِفُ أوّلاً من نفسه، ثم لغيره من غيره، ولا ينتَصِفُ لنفسه من غيره.

ويقولُ المُحدِّث مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (في أسماء الله تعالى: المُقْسِطُ هو العادِلُ، يُقالُ: أَقْسَطَ يُقسِطُ فهو مُقسِطٌ: إذا عَدَلَ. وأمّا قَسَطَ يَقْسِطُ فهو قاسِطٌ؛ إذا جارَ. فكأنّ الهمزة في «أقْسَطَ» للسَّلْبِ، كما يُقالُ: شكا إليه فأشكاه.

وفيه الحديث الذي أخرجه الإمامُ مُسْلمٌ في «صحيحه» عن أبي موسى الأشعريّ ﷺ قال: قام فينا رسولُ اللَّهِ ﷺ بخمسِ كلمات؛ فقال: «**إنَّ اللَّهَ ﷻ لا يَنامُ ولا يَنْبَغِي له أنْ ينامَ، يَخْفِضُ القِسْطَ ويَرفَعُهُ، يُرْفَعُ إليه عَمَلُ الليل قَبْلَ عَمَلِ النهارِ، وعَمَلُ النهارِ قَبْلَ عَمَلِ الليلِ، حِجابُهُ النورُ، لو كَشَفَه لأَحْرَقَت سُبُحاتُ وَجْهِهِ ما انْتَهَى إليه بَصَرُهُ مِن خَلْقِهِ**» ومعنى القِسْطِ في الحديث: الميزان، سُمِّيَ به مِن القِسْطِ وهو العَدْلُ. أرادَ: أن اللَّهَ يَخْفِضُ ويرفع ميزانَ أعمال العباد المرتفعة إليه، وأرزاقَهُم النازلَةَ من عنده، كما يرفَعُ الوزَّانُ يَدهُ ويَخفِضُها عند الوزن، وهو تمثيل لما يقدِّره اللَّهُ ويُنْزِلُه. وقيل: أراد بالقِسْطِ: القِسْمَ منَ الرزقِ الذي يُصيبُ كُلَّ مخلوق، وخَفْضُه: تقليله، ورفْعُهُ تكثيرُه.

وفيه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قام رسولُ الله ﷺ على باب بيتٍ فيه نفر من قريش، فقال ـ وأخذ بعَضادةِ البابِ، ثم قال: «**هل في البيتِ إلاّ قُرَشِيٌّ**»؟ فقيل: يا رسولَ اللَّهِ، غيرَ فلان ابنُ اختِنا فقالَ: «**ابنُ أختِ القوم منهم**»، قال ثم قال: «**إن هذا الأمر في قريش ما داموا إذا اسْتُرحِمُوا رحِمُوا، وإذا حَكمُوا عَدَلوا، وإذا قَسَمُوا أَقْسَطُوا، فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنَةُ اللَّهِ والملائكةِ والناسِ أجمعين، لا يُقبَل منه صَرْفٌ ولا عَدْلٌ**» ومعنى أَقْسَطُوا: أي عَدَلوا.

أثر هذا الاسم على العبد

إنّ مَن عَلِمَ أن مِن أسماءِ اللَّهِ تعالى العَدْلُ والمُقْسِطُ اطمأنَّ أولاً إلى عَدْلِ اللَّهِ تعالى، وعَلِمَ أن له ربّاً عادِلاً في أحكامِه، لا يَظلِمُ أحداً ولا يَبْخسُه حقه، ولا يُضيِّعُ له عملاً، وأنه يأمُرُ الناسَ بالعَدْلِ وينهاهم عن الظلم، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ في الحديث القُدسِيّ الذي يرويه عن ربه تباركَ وتعالى فيما أخرجه البخاري عنه في كتابه «الأدب المفرد» عن أبي ذر الغِفاريّ ﷺ قال: «**يا عِبادِي إني قد حرَّمْتُ الظلمَ على نَفْسِي، وجعلتُه بينكم مُحرَّماً، فلا تظالَمُوا**» وأخرج عن جابر عنه ﷺ أنه قال: «**اتَّقوا الظلمَ، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة**».

لقد أنزل اللَّهُ شريعة سَمْحاء عادِلَةً لا تُحابي أحداً مِن الناس على حساب أحد، ولا ترفَع أحداً على حساب أحد، فالقويّ والضعيفُ فيها سواء، والغنيّ

والفقير فيها سواء وأحكامُه مفروضَةٌ على الجميع، مَلِكِهم وعامَّتِهم، وذلك أنها مِن تنزيل اللَّهِ ربِّ العالمين، الحكيم العليم، الخبير بما خلق، الذي لا يجامِلُ أحداً ولا ينحاز لأحد، فالكلُّ عنده سواسِيَة كأسنان المشطِ الواحد، بينما كانت النظمُ الوضعيَّةُ التي سنَّها البشرُ وارتضوها لأنفسهم نُظَماً قاصِرَةً بقُصُور واضعيها، متأثِرةً بعقولهم وأهوائهم وأغراضهم وغاياتهم فكانت بذلك أحكاماً ظالمة، وكم مِن قاتلٍ مُجرم يَسْرَح ويمرح في ظل هٰذه الأنظمة، وكم مِن شريف تقيّ نقيّ، مسجونٍ ومُعَذَّب، وكم من لِصٍّ كاذب يختل الناسَ ويسرق أموالهم باسم الحضارة، والعدلُ أساسُ الملك.

الإسلام دين العَدالة

العدالَةُ من المُثُلِ الأساسية التي جاء الإسلامُ ليقرِّرَها بين بَني الإنسان، وقد كان طَبيعياً مِنَ الإسلام الذي يحرص على كرامَةِ الإنسان، ووصولِ حقّه إليه أن يأمر بالعدالَةِ الضرُورِيَّةِ لإقامَةِ الحَقّ، وضَمانِ العَدْلِ الذي يشيع الطمأنِينة وينشرُ الأمْنَ، ويَشُدُّ عِلاقات الأفراد بعضهم ببعض، ويجعل الروابِطَ بَيْنَهم قائِمةً على التوازن والانسجام والإخاء.

أهمية العدالة في الإسلام

مِن هنا نجدُ آيات القرآن، وأحاديث الرسول مَليئةً بالدَّعْوَةِ للعَدالة وإحقاق الحَقِّ، مُحذِّرَةً من الظُلم والبَغْي، ومحرّمةً له تحريماً قاطِعاً، ومُتَوَعِّدَةً عليه بالعقاب الغليظ. قالَ الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: 90].

إنّ اللَّهَ تعالى عَدْلٌ مُقْسِطٌ، وقد أرسَل رُسُلَهِ، وأنزل كُتُبَه وكلّف الناسَ بالشرائع لإقامة العَدْلِ والحقّ، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]، والسمٰواتُ والأرضُ إنما قامَتا بالعَدْلِ، قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ۝٩﴾ [الرحمٰن: 7 ـ 9]. وقد أُمِرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ بالعَدْلِ بين الناسِ، قال تعالى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن

كِتَٰبٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: 15] .

تحريم الإسلام للظلم

أما الظُّلْمُ فإنّه أَمْرٌ حرَّمَهُ اللَّه تعالى على نفسه، وحرَّمَه على عِبادِه، يقول تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: 31] وأخرج الإمامُ البخاري في كتابه «الأدب المُفْرَد» عن أبي ذَرٍّ الغفارِيّ، عن النبي ﷺ، عن الله تبارك وتعالى قال: **«يا عِبادِي! إني قد حَرَّمت الظُّلمَ على نفسي، وجَعَلْتُه بَيْنكم مُحَرَّماً، فلا تظالَمُوا»** وقد نهى رسولُ اللَّهِ ﷺ عن الظُّلْم، وأخبرنا أنه يكون ظلماتٍ يوم القيامة، أخرج الإمام البخاريّ في «الأدب المفرَد» عن جابر بن عبد الله ﷺ، قال: قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: **«اتَّقُوا الظُّلْمَ، فإنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيامَة»**.

عدم الميل في الحكم

والعَدْلُ الذي يُنادِي به الإسلامُ عَدْلٌ مُطْلَقٌ يُساوِي بين الناسِ جميعاً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النساء: 58] ولا تُعْتَبَرُ العَداوَةُ التي تقومُ بين الناسِ مُبَرِّراً لِقِيامِ الظُّلْم، أو تَرْكِ العَدْلِ، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ [المائدة] وحَتَّى القَوْلَ أمرَ اللَّهُ بالعَدْلِ فيه، ولو كان يتعلَّق بذوي القُربَى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: 152] .

وجوب العدالة على الفرد والمجتمع

والعدل في الإسلام مفروض على الأفراد، وعلى المجتمع، فالعدل في الأفراد هو إعطاءُ كلِّ ذي حَقٍّ حقَّه، ومِن آفاتِه التَحَيُّزُ، والمجتمعُ العادِلُ هو المجتمعُ الذي له مِن نُظُمِهِ وقوانِينه ما يُسَهِّل لِكُلِّ فَرْدٍ أن يَصِلَ إلى حَقِّه، وأن يَرْقَى على قَدْرِ اسْتِعْدَادِهِ، والتَحْدِيدُ الدَّقِيقُ لِعِلَاقَةِ الفردِ بالمُجْتَمَعِ عَدْلٌ أيضاً، وأساسُ العَدْلِ التَجرُّدُ عن الهوى، وعَدَمُ التأثُّرُ بأيِّ شيءٍ إلّا الحقّ.

مبادِئُ العَدْل

وللعَدْلِ مَبادِئُ كثيرة. لذلك كان العَدْلُ مِن أُسُسِ الحكمِ ودِعَامَتُه القويَّة، يقولُ الخليفة الراشدُ الأول أبو بكر الصدِّيقُ ﷺ في خُطبته الأُولَى بَعْدَ أن وَلِيَ الخِلافَةَ، تِلكَ الخُطْبَةُ التي جعلها دُستورَ حُكْمِهِ: «الضعيفُ فيكم قويٌّ عِندِي حتَّى آخُذَ الحَقَّ له، والقَوِيُّ فيكم ضَعِيفٌ عِندِي حتى آخُذَ الحقَّ منه إنْ شاء اللَّهُ».

وكان الخليفةُ الراشِدُ عمر بن الخطاب ﷺ لِحِرْصِهِ على أن يَحْكُمَ عُمّالُه ووُلاتُه بالعَدْلِ، يَخْرُجُ مَعَ مَن يَسْتَعْمِلهم يُشَيِّعُهم ويذكُر لهم أنه لم يستعملهم على الناسِ لِيَنالُوا مِن أبْشَارِهِمْ ـ أي مدحهم وبشاراتِهم ـ وأمْوالِهم وأعراضِهِمْ، وإنَّما لِيُعَلِّمُوهُم كتابَ اللَّهِ وسُنَّةَ رَسُولِهِ، ولِيَقْضُوا بَيْنَهم بالحق، ويَقْسِمُوا بينهم بالعَدْلِ، وكان يقولُ للناس: «مَن ظَلَمَهُ عامِلُهُ بِظَلامَةٍ فَلْيَرْفَعْها إليَّ حتى أَقُصَّه منه». وحين سأله عمرو بن العاص واليه على مصرَ قائِلاً: يا أميرَ المُؤمِنين! أَرَأَيْتَ إنْ أَدَّبَ الأميرُ رجُلاً مِن رعيَّتِهِ، أَتَقُصُّهُ منه؟ فقال عمرُ: ما لي لا أَقُصُّه منهُ وقد رأيتُ رسولَ اللَّهِ ﷺ يَقُصُّ مِن نفسه».

مجالات العدل في الإسلام

والعَدْلُ الذي يَتَطَلَّبُه الإسلام عَدْلٌ في الحُكْم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِۚ﴾ [النساء: 58] والإمَامُ العادِلُ أحدُ سَبْعَةٍ يُظِلُّهم اللَّهُ في ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلّا ظِلُّه، وقد أخبر رسولُ اللَّهِ ﷺ أن سَيِّدَ الشهداء حمزة بن عبد المطلب. ورَجُلٌ قام إلى إمامٍ جائرٍ فأمَرَه بالمعروف ونهاهُ عن المُنكر فقتله.

وهو عدلٌ في الضعفاءِ، وتسويَةٌ بين المتخاصِمَيْنِ مهما اختلفت منزلتهم أو تبايَنَتْ طبَقَتُهم، كما أنه عَدْلٌ في توزيعِ الحقوق والواجباتِ، وعَدْلٌ في إقامَةِ الحُدُودِ بين الناسِ، وفي القِصاصِ، وعَدْلٌ في القولِ والشهادة والكتابة، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾ [الحجرات: 9].

obeikandl.com

45 ــ الحميد

إن المُكَلَّفين في واقع حالهم بين يدي التكليف الرَّبَّاني أقسامٌ ثَلاثَةٌ:

(القسم الأول): السابقون في الخيرات: وهم المبالِغُون في طاعة الربِّ تعالى، والمُلْتَزمون حدودَ شرائعه، مع تفاوُتٍ فيما بينهم، وهؤلاء سيجدون أنفسهم أمام طائفة من أسماء الأفعال لله تعالى، والذي جاء في المأثور منها اسمان: (الحميد ـ في أحد معانيه ـ والشَّكور).

(القسم الثاني): المُقْتَصِدون: وهم الذين خَلَطُوا عملاً صالحاً وآخر سَيِّئاً، فهم مُذْنبون لكنهم تائبون؛ ذلك أن الناسَ بوصف أنهم بَشَرٌ، تَغْلِبُهُمْ شَهَواتُهم، فَيَقَعُونَ في مخالَفته تعالى، وقد يكونون كارهين مِن أنفُسهم ذلك، ولكنّ سُلطانَ شهواتهم تغلُبُ على إرادَتِهم حتّى إذا قَضَوْا دوافِع الشَّهْوَةِ، ووقعوا بالمخالَفَةِ، ندمُوا بعدها على ما اقْتَرَفُوا. وقد مَنَحَ اللَّهُ سُبحانَه لهؤلاء العاصين فُرْصَةَ التَوْبَةِ والندم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: 25] وأعْطَى المُذْنِبَ فُرْصَةً لإصْلَاحِ نفسِه، وغَسْلِ خَطاياه، وفَتَحَ له بِفَضْلِهِ وكَرَمِهِ بابَ التَوْبَةِ والغُفرانِ والعَفْو، ينَالُ منها نصيباً حَسَناً، إذا استَغْفَرَ وتابَ إلى بارئِهِ. ومِن هنا جاء في المأثور مِنْ أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى: (التوابُ، الغَفُورُ، الغَفَّارُ، العَفُوُّ).

(القِسْمُ الثالِثُ): الظالِمُون لأنفسهم، بالاستغراق في المعاصي والذُنوب، وعَدَمِ الرُّجُوعِ إلى اللَّهِ تعالى بِتَوْبَةٍ أو نَدَم. وإذْ يَحْمِلُ هٰؤلاء أوزارَهُم على ظُهورِهم مُكابِرِينَ مُعَانِدينَ، غيرَ مُكتَرثين ولاَ وَجِلِين، سيجدون أنفسهم بين يَدَيْ (الحليم، الصَّبُورِ) ثم: (المُنْتَقِم) الذي يُعاقِبُ على السَيِّئَةِ بمثلها.

اسمُ اللّهِ الحَمِيد

الحَمِيدُ (فَعِيلٌ) بمعنى: (فاعِل) أي حامِد، فيكون معناه على هٰذا: الذي يَحْمد أهل طاعَتِه مِن عِباده، ويُثني عليهم بِما عَمِلُوا مِن خَيْر، ويُسَخِّرُ لهم مَنْ يُثْنِي عليهم بين خَلْقِه، تَكريماً لقلوبِهِمُ الطاهِرَةِ، وأعمالِهِمُ الحَسَنَةِ، وهٰذا المعنى هو أحَدُ مَعاني هٰذا الاسمِ الكَريمِ. قالَ اللَّهُ تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى

﴿ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾﴾ [الحج: 64].

أقوال العُلَماء في تفسيره

يقول حجّة الإسلام وفيلسوفه الإمام الفقيه الأصولي أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابِهِ: «المقصد الأسنى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحُسْنَى» في تفسير هذا الاسم: (الحَميدُ هو المَحْمُودُ المُثْنَى عليه. واللَّهُ تعالى هو الحَميدُ، بِحَمْدِهِ لنفسه أزَلاً، وبِحَمْدِ عِبادِه له أبداً. ويرجعُ هٰذا إلى صِفاتِ الجَلال والعلوّ والكمال مَنْسُوباً إلى ذِكرِ الذاكِرين له، فإنَّ الحَمْدَ هو ذِكرُ أوصافِ الكمالِ من حيثُ هو كمال.

والحَميدُ من العِبادِ هُوَ مَن حَمِدَت عَقائِدُه وأخلاقُه وأعمالُه وأقوالُه كلُّها مِن غَيْرِ مشوبَة وذاكَ هو مُحَمدٌ ﷺ، ومَن يَقْرُبُ منه مِن الأنبياء، ومَنْ عَداهُم من الأولياءِ والعُلَماءِ، وكلُّ واحدٍ منهم حَميدٌ بِقَدْرِ ما يُحْمَدُ مِن عقائِده وأخلاقِه وأعماله وأقوالِه. وإذا كان لا يخلو أحَدٌ عَن مَذَمَّةٍ ونَقْصٍ وإن كَثُرَت محامِدُه، فالحميدُ المُطْلَق هو اللَّهُ تعالى). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المحدّث اللغوي مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري رحمه الله في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هٰذا الاسم: (الحَميدُ أي المَحمودُ على كلّ حَالٍ. قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: 2] الحَمْدُ والشكرُ مُتقاربان، والحَمْدُ أعَمُّهُما؛ لأنكَ تَحمَدُ الإنسانَ على صِفاتِهِ الذاتيَّة وعلى عطائه، ولا تشكرُه على صِفاتِه.

ومنه الحديث الشريف الذي أخرجه عبد الرزاق في «الجامع» والبيهقي في «شعب الإيمان» عن ابن عمر، عن رسول الله ﷺ: «**الحَمْدُ رَأْسُ الشُكْرِ، ما يَشْكُرُ اللَّهَ عَبْدٌ لا يَحْمَدُه**» كما أن كلمة الإخلاص رأسُ الإيمان، وإنما كان رأسَ الشُكر؛ لأن فيه إظهارَ النِعمة والإشادَةَ بها؛ ولأنه أَعَمُّ منه، فهو شكر وزيادَة.

وفي حديث الدُعَاء المتفق عليه الذي أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» ومسلم في «صحيحه» عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما صَلّى النبي ﷺ صلاةً بعد أنْ نَزَلَتْ عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ [النصر: 1] إلّا يَقُولُ فيها: «**سُبْحَانَك رَبَّنا**

وبِحَمْدِكَ، اللهُمَّ اغْفِرْ لي» يَتأوَّل القرآن، أي بحمدِكَ أبتدىء، وقيل: بِحَمْدِكَ سَبَّحتُ.

ومنه الحديث الذي أخرجه الأئمة الترمذي وابن ماجه والإمام أحمد والدارمي عن أبي سعيد الخُدْرِيّ ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**أَنا سَيِّدُ وَلَد آدَمَ ولا فَخْرَ، وأنا أَوَّلُ مَن تَنْشَقُّ الأرضُ عنه يومَ القِيامَة ولا فَخْرَ، وأنا أَوَّلُ شافِعٍ ومُشَفَّعٍ ولا فَخْرَ، وَلِواءُ الحَمْدِ بِيَدِي يومَ القِيامَة ولا فَخْرَ**» يُريدُ بِلواء الحَمْدِ انفِرادَه بالحَمْدِ يومَ القِيامَةِ وشُهْرَتَه به على رؤوس الخَلْقِ، والعَرَبُ تَضَعُ اللواءَ مَوْضِعَ الشُهْرَةِ.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام البخاريُّ في «صحيحه» عن جابر بن عبد اللَّهِ ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**مَن قال حِينَ يَسْمَعُ النِداءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هٰذه الدَعْوَةِ التامَّةِ والصلاةِ القائِمَةِ آتِ محمداً الوَسِيلَةَ والفَضِيلَةَ، وابْعَثْهُ مَقاماً مَحموداً الذي وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ له شفاعَتِي**» ومعنى المقام المَحْمودِ: أي الذي يَحْمَدُه فيه جميعُ الخلائق لتعجيل الحِسَابِ، والإراحَةِ مِن طُولِ الوُقُوفِ، وَقيل: هو الشفاعَةُ.

فائدة في اسم النبيّ ﷺ (محمّدٌ): أخرج الترمذي في «الشمائل» عن حذيفة ابن اليمان قال: لَقِيتُ النبيَّ ﷺ في بعضُ طُرُقِ المدينةِ فقالَ: «**أنا محمدُ وأنا أحمدُ، وأنا نبيُّ الرحمة، ونبي التوبة**» وأخرج ابن هشام في «سيرته» أن آمنةَ بنت وهب أمَّ رسولِ الله ﷺ كانت تحدِّث أنها أُتِيَتْ حين حَمَلَتْ برسولِ الله ﷺ فقيلَ لها: إنك قد حَمَلْتِ بِسَيِّد هٰذه الأُمَّة، فإذا وَقَعَ إلى الأرض فقولي: أُعِيذُه بالواحِد، مِن شَرِّ كلِّ حاسِد، ثم سَمِّيهِ مُحَمَّداً» ومحمّد اسم مفعول من التحميد للمبالغة، يقال: حَمِدَه إذا نسبه إلى كثرة المحامِد والفضائل، أو هو الذي حُمِد مَرَّةً بعد أخرى. ورسولنا ﷺ تكاملت فيه الخِصالُ المحمودةِ والأخلاق الفاضلة، ولا تزال الأمم تلهج بحمده والثناءِ عليه إلى وقتِنا هٰذا وإلى يوم القيامَة، ولم يكن هٰذا الاسمُ مَشهوراً في الجاهلية، ولا يُعرفُ مَن تسمَّى بهٰذا الاسم قبله إلا ثلاثة طَمِعَ آباؤهم لما سمعوا من الأحبار والرهبان أن نبياً سَيُبعث آخر الزمان يسمّى محمداً، وهم: محمد بن سفيان بن مجاشع، ومحمد بن أحيحة، ومحمد بن حمران بن ربيعة.

46 ــ الشَّكُور

معناه

صيغة مبالغة لشاكِر، والشُكرُ يأتي بمعنى: كثرة الثناء على الأفعال الحسنة، ومقابلة الحَسَنَة بمثلها، أو بأحسنِ منها. ومعنى كونِ اللَّهِ سبحانَهُ شكوراً: أنّه كثيرُ الثناء على عبادِه في طاعاتهم، وأفعالهم الحَسَنة، والمُغْدِقُ عَليهم الثواب الجزيل، على العمل الضئيل، فضلاً منه ورحمة. قال اللَّهُ تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: 17].

أقوال العُلماء في تفسيره

يقول الإمام الفيلسوف الأصولي الفقيه حُجَّةُ الإسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المقصِد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: (الشكور هو الذي يُجازي بِيَسِير الطاعاتِ كثيرَ الدرجات، ويُعطي بالعملِ في أيّام معدودة نعيماً في الآخرة غيرَ مَحدُودٍ، ومَن جازَى بالحسنةِ بأضعافها يقالُ: إنه شكر تلك الحسنة، ومَن أثنى على المُحسِن أيضاً يقال: إنه شَكَرَه.

فإن نظرتَ إلى معنى الزيادَة في المجازاةِ لم يكن الشكورُ المُطلَقُ إلّا اللَّهُ تعالى؛ لأن زياداتِه في المُجازاة غيرُ مَحصورة ولا مَحْدودة، فإنّ نعيمَ الجنَّة لا آخِرَ له، واللَّهُ تعالى يقولُ: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: 24].

وإنْ نظرتَ إلى مَعْنَى الثناءِ فثناءُ كلِّ مُثْنٍ على غيرِه، والربُّ تعالى إذا أثْنَى على أعمالِ عِبادِه فَقَد أثنى على فعلِ نفسه؛ لأن أعمالهم مِن خلقه، فإن كان الذي أَعْطَى فأثنَى شكوراً فالذي أَعْطَى وأثْنَى على المُعْطِي فهو أحقّ بأنْ يكون شكوراً فثناءُ الله على عِبادِهِ كقوله: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ [الأحزاب: 30] وكقوله: ﴿نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: 44]. وما يجري مجراه، وكلُّ ذلك عطيَّةٌ منه.

العَبْدُ يُتصوَّرُ أن يكون شاكِراً في حق عَبْدٍ آخَرَ، مَرَّةً بالثناءِ عليه بإحسانه إليه، وأُخْرى بمجازاته أكثر مما صنعه إليه. وذلك من الخصال الحميدةِ، أخرج أبو داود السجستاني والترمذي في «سننهما» عن أبي هريرة ﷺ، عَن النبي ﷺ قال: «**لاَ يَشْكرُ اللَّهَ مَن لا يَشْكُرُ الناسَ**» وقال الترمذي: «حسن صحيح» معناه: أن اللَّهَ لا يَقبَلُ شُكْرَ العَبْدِ على إحسانه إليه إذا كان العَبْدُ لا يشكرُ إحسانَ الناسِ.

وأما شُكْرُهُ لِلَّهِ فلا يكونُ إلّا بِنَوْعٍ مِن المَجاز، فإنه إن أثْنَى فَثَناؤه قاصِرٌ؛ لأنه لا يُحْصِي ثَناءً عليه، وإن أطاعَ فطاعَتُه نِعْمَةٌ أخرى مِن اللَّهِ تعالى عليه، بل عينُ شُكرِه نِعْمَةٌ أخرى وراء النِعْمَةِ المَشْكورَة، وإنما أحسنُ وُجُوهِ الشكرِ لنعم اللَّهِ تعالى أن لا يستعملها في معاصيه، بل في طاعته، وذلك أيضاً بتوفيقِ اللَّهِ وتَيْسِيرِه في كونِ العبد شاكِراً لِربِّه. وتَصَوُّرُ ذلك كلامٌ دقيقٌ ذكرناه في كتاب الشكر مِن كتاب «إحياء علوم الدين»، فلْيُطْلَبْ منه). انتهى كلامُ الغزالي.

ويقول الإمامُ المُحدِّث اللُّغَوِيُّ مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزريُّ الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ، في تفسير هٰذا الاسم في كتابه: «النهاية في غريب الحديث»: (الشَكُورُ هو الذي يَزْكُو عِندَه القليلُ مِنَ أعمالِ العِبادِ فيُضاعِفُ لهمُ الجزاءَ، فَشُكْرُهُ لعباده مَغْفِرَتُه لهم، والشَّكُورُ مِنْ أَبْنِيَةِ المُبالَغَةِ. يقالُ: شَكَرْتُ لكَ، وشَكَرْتُكَ والأَوَّلُ أَفْصَحُ، أشكرُ شُكْراً وشُكوراً فأنا شاكِرٌ وشَكُورٌ، والشُكرُ مثلُ الحمدُ، إلّا أن الحمدَ أعَمُّ مِنه، فإنّك تَحْمَدُ الإنسانَ على صِفاتِهِ الجَمِيلَةِ، وعلى معروفه، ولا تَشْكرُه إلا عَلَى معروفِه دون صفاتِه. والشكرُ هو مقابَلةُ النِعْمَةِ بالقَوْلِ والفِعْلِ والنِيَّة، فيُثْنِي على المُنعِمِ بلسانِه، ويُذيبُ نفسَه في طاعته، ويَعْتَقِدُ أنه مُوليها.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن المُؤمِن الذي يَعْلَمُ أنَّ اللَّهَ شَكورٌ يجازي عبادَه، وَجَب عليه أن يتخلَّق بهٰذا الخلق العظيم، وأن يكون له حظٌّ من هٰذا الاسم الكريم، والشكر درجات كثيرة، فإنّ حياءَ العبدِ مِن تتابُع نِعَم اللَّهِ عليهِ: شكرٌ، ومعرفَتَهُ بتقصِيره عن الشكرِ: شكرٌ، والاعتذارُ عن قلّةِ الشكرِ: شكرٌ، والمَعْرِفَةُ بعظيم حِلْم اللَّهِ وكَنفِ سَتْرِهِ عليه: شُكرٌ، والاعتراف بأنّ النِعَمَ ابتداءٌ مِنَ اللَّهِ تعالى من غيرِ استحقاقٍ:

شكرٌ، وحُسْنَ التواضُعِ للنِعَمِ والتَذَلُّلَ فيها: شُكرٌ، وشُكرَ الوسائِطِ: شُكرٌ، إذْ قال ﷺ في الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: «**من لَمْ يَشْكِرِ الناسَ لم يَشْكُرِ اللَّهَ**» وقِلَّةَ الاعْتِرَاضِ وحُسْنَ الأَدَبِ بَيْنَ يَدَيْ المُنْعِمُ: شُكْرٌ، وتَلَقِّي النِعَمِ بِحُسْنِ القَبُولِ واسْتِعْظَامِ صَغيرِها: شُكْرٌ، والشُكرُ على الشُكرِ هو أَتمُّ الشُكرِ، بأن يَرَى التوفيقَ لشُكْرِ النِعْمَةِ بِحَدِّ ذاتها تَسْتَحِقُّ الشُكْرَ.

وقيلَ للشكرِ درجتان: **(الأولى)**: الشكر على المَحابِّ. **(والثانية)**: الشُكرُ على المَحابِّ والمَكارِه. وصاحبُ هٰذه الدرجة أَوَّلُ مَن يُدْعَى يَوْمَ القِيامَة إلى الجنة؛ لأنه يقابلُ المكارِهَ بالشكر، بينما يقابلها أكْثرُ الناسِ بالجزع والسُخْطِ، وأَوْسَاطُهُمْ بالصَبْرِ، وخاصَّتُهم بالرضى، فقابلها هو بأعلى مِن ذٰلك: أخرج الطبراني في «معجمه الكبير» والحاكم في «المستدرك» والبيهقي في «شُعَبِ الإيمان» عن ابن عباس ﷺ، أن رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**أَوّل مَن يُدعى إلى الجَنَّةِ الحَمّادُون، الذين يَحْمَدُونَ اللَّهَ في السَّرَّاءِ والضرَّاء**».

ثمرات الشكر

أولُ ثمراتِ الشكر: دوامُ النِعَم، أخرج البيهقي في «شعب الإيمان» أن النبي ﷺ قال: «**إنّ النِعْمَةَ مَوْصُولَةٌ بالشكر**».

وثانيها: زيادة النِعَم، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

وثالثها: التواضُع، فالشكرُ يورثُ التواضُعَ؛ لأنّ فيه اعترافاً وإقراراً بالمِنّة، «وكان رسولُ اللَّهِ ﷺ إذا جاءه أَمْرٌ يَسُرُّهُ خَرَّ ساجِداً شاكِراً لله ﷻ» أخرجه الإمام أحمد في «مسنده».

ورابعها: مَحَبَّةُ اللَّهِ ﷻ، فشُكر النِعَم يورثُ محبَّة المُنعم، أخرج الترمذي في «سننه» عن رسولِ اللَّهِ ﷺ أنه قال: «**أَحِبُّوا اللَّهَ لِما يُغْذُوكم مِن نِعَمِهِ**».

وخامسها: الوقاية مِن عذاب الله، قال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ﴾ [النساء: 147].

وسادسها: الفوزُ بِرِضَى اللَّهِ تعالى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7].

47 ــ التوّاب

معناه

صيغة مبالغة للتائب، والتَوبةُ لغةً: الرجوع، يقال: تاب العَبْدُ إذا رَجَعَ إلى الندمِ والطاعةِ، ويُقالُ: تابَ اللَّهُ عليه: إذا رجع عليه بالقَبولِ والغفرانِ. فمعنى التوَّابِ بالنِسبة إلى اللَّهِ تعالى: أنه يَرْجِعُ على مَنْ تاب مِن عبادِه بقبول تَوْبَتِهم، وغفران سَيِّئاتهم. قال اللَّهُ تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة: 104] ويوجد في القرآن الكريم سورة تسمَّى: سورة التوبة، كما ورد هٰذا الاسمُ فيه في (11) موضعاً، وورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللَّهِ الحُسنى، الذي أخرجه الترمذي والبيهقي عن أبي هُريرة ﷺ.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّةُ الإسلام وفيلسوفُه الإمام الأصولي الفقيه أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير هذا الاسم في كتابه: «المَقْصِد الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحسنى»: (التَّوَّابُ هو الذي يَرْجِعُ إليه تيسيرُ التوبَةِ لِعِبَادِهِ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، بما يَظهرُ لهم مِنْ آياتِهِ، ويَسُوقُ إليهم من تنبيهاته، ويُطلِعُهُمْ عليه مِن تَخْوِيفاتِه وتحذيراته، حتى إذا اطَّلَعُوا بتعريفه على غَوائِلِ الذنوب، استَشْعَرُوا الخوفَ بِتَخْوِيفِه، فرجعوا إلى التوبَة، فَرَجَعَ إليهم فَضْلُ اللَّهِ تعالى بالقَبُولِ.

وبالنسبة للبَشَرِ، فَمَنْ قَبِلَ مَعاذيرَ المُجْرِمِينَ مِنْ رَعاياهُ وأَصدِقائِهِ ومعارفه وأقاربه مَرَّةً بعد أخرى فقد تخلَّقَ بهٰذا الخُلُقِ، وأخذ مِنه نَصِيباً). انتهى كلام الغزالي.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إن مَنْ عَلِمَ أنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ يَقبَلُ التَوبَةَ مِن عبادِه مرّة بعد مرّة، أَقْبَلَ على اللَّهِ بالتَوْبَةِ مِن ذنوبه، وأَقْلَعَ عن المعاصي؛ لأَنَّ الإنسانَ كائِنٌ مِتفرِّدٌ في سائر الخَلْقِ، وهو مُرَكَّبٌ مِن عَقْلٍ وشَهْوَةٍ، فإن سَمَا عَقْلُه على شَهْوَتِهِ أَصْبَحَ فَوْقَ الملائِكة. وإنْ طَغَتْ شَهْوَتُه على عَقْلِهِ أصْبَحَ دُونَ الحيوان، وقد جاءَ الإسْلامُ، وهو دينُ الفِطْرَةِ، لِيُقيمَ توازُناً دَقيقاً بَيْنَهما عن طريقِ المنهجِ الربَّانيَّ الذي رُسِمَ له مِن خِلالِ آياتِ القرآنِ الكريمِ وسُنَّةِ النبيِّ ﷺ.

وبما أنّ اللَّهَ قد أَلْهَمَ الإنسان طريقِ الطاعة وطريق العصيان، وأعطاهُ القُدْرَة على التمييز واختيار أحدهما والمضيّ فيه ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: 10] وبما أن الإنسان خُلِقَ ضعيفاً، فإنه قَدْ يَعْصِي ربّه، ويَنْحَرفُ عن المنهج الذي رسمه لهُ.

فالعِصْمَةُ ليست من سِمات هٰذا المخلوق، بل إنَّ مِن سِماتِهِ النِسْيَان ومُقارَفَة الإثم، بحكم ضَعْفِه وما رُكِّبَ في كيانِه مِن أهواءَ وشهوات، ولهٰذا شرعَ اللَّهُ له التَوبَةُ، وفي تشريع التوبة وقبولها صيانة لحركةِ الهدايةِ في الأَرْضِ.

إنَّ التوبةَ مَخْرَجُ الإنسان حينما تُحيط به خطيئاته، وهي صَمَّامُ الأمان حينما تضغط عليه سيئاته، وهي تصحيح للمَسَارِ حينما تُضِلُّه أَهْواؤه، وإنها حَبْلُ اللَّهِ المَتِين الذي يُنقِذُ الإنسانَ حينما تُغْرِقُه زلّاته.

ولو لم تُشْرَع التَوبَةُ لهلكَ الناسُ، ولعمَّ الفَسادُ في الأرض؛ لأن الإنسانَ إذا طُرِدَ مِن رَحْمَةِ اللَّهِ لِمُجَرَّد مَعْصِيةٍ أو مُخالَفَةٍ واحِدَةٍ فلن يَرْجِعَ إلى مَنْهَجِ رَبِّه لانْعِدَامِ أَمَلِهِ في القَبُول، وعندئذٍ سَيَتَمادَى في الفُجورِ والعِصْيان ويخرُجُ من الدين نهائياً.

وقد جَعَلَ اللَّهُ بابَ التوبَة مفتوحاً لا يُغْلَقُ حتى تَنْتَهيَ حياةُ الإنسانِ أو تَطْلُعَ الشمسُ مِن مَغْرِبها، أخرج الإمام مسلم في «صحيحه» في كتاب التوبة قال رسولُ الله ﷺ: «**إنّ الله ﷻ يَبْسُطُ يَدَهُ بالليلِ ليتوبَ مُسِيءُ النهارِ، ويَبْسُطُ يَدَهُ بالنهارِ لِيَتُوبَ مَسِيءُ الليلِ حتى تَطْلُعَ الشمسُ من مغربها**».

إنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ لا يَطْرُدُ من يَلجأُ إلى رحمته بعد طول عِصْيان، قال تعالى:

﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر: 53] فالتوبَةُ دَعْوَةٌ مِنَ اللَّهِ تعالى لِعِبادِهِ لِنَبْذِ اليَأسِ والقُنوطِ، دَعْوَةٌ لِوُلُوجِ بابِ الرَّحمةِ والانغماسِ في بَحْرِ كَرَمِ اللَّهِ وحِلْمِهِ وعَفْوِه. فَهي إذن صِلَةُ وَصْلٍ لِمَا قَطَعَتْهُ الذُّنُوبُ، وَتَجْدِيدٌ لعَهْدٍ قَصَّرَ بِوَفائِهِ الخَطأُ والزَلَلُ، وفُرْصَةٌ لَتَصْحيحِ المَسارِ والعَوْدَةِ إلى مَنْهَجِ اللَّهِ مِن جديد.

إن اللَّهَ توابٌ لا يجعَلُ المُذْنِبَ في آخِرِ القافِلَةِ بسبب ذنْبِهِ الماضي، إذا ما تابَ واسْتَغْفَرَ ولم يُصِرَّ أو يَتَعَالَى على الأمر ابتداءاً. فخالِقُ هٰذا الإنسانِ يَعْلَمُ أنه ضَعِيفٌ، وسُرعانَ ما يَسْقُطُ إذا أفْلَتَ مِن يَدِهِ الحَبْلُ الذي يربُطه، والعُرْوَةُ التي تَشُدُّهُ، وأن ما رُكِّب في كيانه مِن أطماعٍ ومُيولٍ وشهواتٍ قد يَدْفَعُه إلى المخالَفَةِ والمَعْصِيَةِ أحياناً، ويَعْلَمُ أنَّ الشيطانَ يَقْعُدُ له كلَّ مَرْصَدٍ ويأخُذُ عليه كُلَّ طَريقٍ.

يَعْلَمُ سُبْحَانَهُ عَنْ هٰذا الإنسانِ كلَّ ذلك، فلا يَقْسُو عَلَيْهِ ولا يَطْرُدُه مِن رَحْمَتِهِ حِينَ يُخْطِىءُ أو يَزِلُّ، ولا يُغْلِقُ في وجْهِهِ بابَ التَوْبَة، ولا يُلْقِيهِ مَنْبُوذاً حائِراً في ضَلالاتِه، بل يُوَسِّعُ له في الرحْمَةِ ويُطمِّعُهُ في المَغْفِرَة، ويُنيرُ له الطريقَ لِيَفيءَ إلى الحِمَى الآمِنَ ويَثُوبَ إلى الكَنَفِ الأمِين.

حتى بعد أنْ يَلِجَ في المَعْصِيَةِ ويُسْرِفَ في الذَنْبِ، ويَحْسِبُ أنه قَدْ طُرِدَ وانْتَهَى أَمْرُهُ، ولم يَعُدْ يُقْبَل ولا يُسْتَقْبَل، في هذه اللحظةِ، لحظةَ اليأسِ والقُنوط، يَسْمَعُ نِداءَ الرَّحْمَةِ الندِيِّ اللَّطِيف: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾، وليس بينَه وبَيْنَ الرَّحْمَةِ الرخِيَّةِ وظِلالِها السَّمْحَة المُحَبَّبة، لَيْسَ بَيْنَه وبَيْنَ هٰذا كُلِّه، وقَدْ لَجَّ في الذَنْبِ وأَبْعِدَ عَنِ الحِمَى وشَرَدَ عن الطريق إلا التوبَة، التوبَةُ وحْدُها الأَوبَةُ إلى البابِ المَفتوحِ الذي ليس عليه بوّابٌ يمنع، والذي لا يحتاج مَن يلج فيه إلى استئذان.

48 ــ الغَفُور

معناه

صِيغَة مُبالَغَة لِغافِر، وهو مأخوذ مِن الغَفْر، وهو السَّتْر، فَمَعْنَى كَوْنِ اللَّهِ غَفوراً: كونُه كثير المَغفِرة، وهي سترُ ذنوب مَن شاءَ مِن عِبادِه، وتجاوُزُه عنها،

وصِيانَهُ المُذْنِب عما اسْتَحقَّهُ مِن العَذابِ، بعد أن استغفر وتابَ، فضلاً منه وكرماً. قال الله تعالى: ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾ [الإسراء: 27] وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في (91) موضعاً كما ورد في الحديث الشريف الجامع للأسماء الحسنى الذي أخرجه الترمذي والبيهقي عن أبي هريرة.

أقوال عُلماء اللغة

قال الليثُ بن المظفَّر اللغوي: (يُقالُ: اللهمَّ اغْفِرْ لَنا مَغْفِرَةً وغَفْراً وغُفْراناً إِنَّكَ أَنتَ الغَفُورُ الغَفَّارُ يا أهلَ المَغْفِرَةِ. وفي حديث أنس عند الإمام أحمد في «المسند» قال: قرأ رسولُ اللَّهِ ﷺ هٰذهِ الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر: 56] وقال: **«قال ربُّكم أنا أَهْلٌ أن أُتَّقَى فلا يُجْعَلَ معي إلٰهٌ، فَمَنِ اتَّقَى أَنْ يَجْعَلَ معيَ إلٰهاً كان أهلاً أن أَغْفِرَ له»**).

وقال أبو منصور الأزهري في معجمه «تهذيب اللغة»: (أَصْلُ الغَفْرِ: السَّتْرُ والتَغْطِيَةُ، وغَفَرَ اللَّهُ ذُنوبَهُ أي سَتَرها ولم يَفْضَحْهُ بها على رؤوسِ المَلأ. وكلُّ شَيْءٍ سَتَرْتَهُ فَقَدْ غَفَرْتَه).

أقوال العُلماء في تفسيره

يقول حجَّةُ الإسلام الإمام أبو حامِد محمد بن محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه «المَقْصِد الأسنى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحسنى»: (الغَفُورُ بمعنى: الغَفَّار، ولكنه يُنْبِىءُ عن نوعِ مُبالَغَةٍ لا يُنْبِىءُ عنه الغَفَّار؛ فإنَّ الغَفَّارَ مُبالَغَةٌ في المَغْفِرَة بالإضافة إلى مَغْفِرَةٍ مُتَكَرِّرَة مَرَّةً بعد أُخْرَى. فـ **(الفَعّال)** يُنْبِىءُ عن كثرة الفِعل، و**(الفَعُولُ)** يُنبِىءُ عن جُودَتِه وكَمالِه وشُمولِه. فهو غَفُورٌ بمعنى: أنه تامُّ الغُفْرَانِ كامِلُهُ حتّى يبلُغَ أقْصَى درجاتِ المَغْفِرَة). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمام المُحدِّث اللغوي أبو المجد المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هٰذا الاسم: (في أسماءِ اللَّهِ تعالى: الغَفَّار والغَفُورُ، وهما مِن أبنية المبالغة، ومعناهما: الساتِرُ لِذُنُوبِ عبادِه وعُيوبِهم، المُتَجاوِزُ عن خطاياهم وذُنوبِهم،

وأصْلُ الغَفْرِ: التَغْطِيَةُ. والمَغْفِرَةُ: إلباسُ اللَّهِ تعالى العَفْوَ للمُذنبين.

وفيه الحديثُ الذي أخرجه أبو داود في «سننه» والترمذي في «جامعه» وابن ماجه في «سننه» والدارميّ وأحمد عن رسولِ الله ﷺأنه كان إذا خرج من الخلاء قال: «**غُفْرَانك**». الغُفْرَان: مصدَرٌ، وهو منصوب بإضمار: أَطْلُبُ، أي أَطْلُبُ غُفرانَك، وفي تخصيصه بذلك قولان: (**أحدهما**) التوبة من تقصيره في شكر النِعْمَةِ التي أنْعَمَ بها عليه مِن إطعامه وهضمه، وتسهيلِ مَخْرَجِه، فَلَجَأَ إلى الاسْتِغْفَارِ مِنَ التَقصير. (**والثاني**) أنه استغفر مِن تَرْكِهِ ذِكرَ اللَّهِ تعالى مُدَّة لُبْثِهِ على الخلاء، فإنه كان لا يترك ذكرَ اللَّهِ بِلِسانِهِ أو قَلْبِهِ إلاّ عِندَ قضاء الحاجَة، فكأنه رأى ذلك تقصيراً، فتدارَكَهُ بالاستغفار.

وأخرج الإمام أحمد في «مسنده» عن أبي ذَرٍّ قلتُ: يا رسولَ اللَّهِ! كَم الرُسُلُ؟ قال: «**ثلاثمائة وخمسةَ عَشَرَ جمَّ غَفِير**» أي جماعة كثيرة، ويقال للجمع الكثير: الجمّ الغفير).

أثر هٰذا الاسم على العبد

إنَّ مَنْ عَلِمَ أن اللَّه «**غَفُورٌ**» يعامِلُ عِبَادَهُ المؤمنين بالتسامح وجب عليه التَخَلُّق بهٰذا الخلق، قال الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199] أخرج ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم في تفسيريهما عن أُبَيٍّ ﷺ قال: لما أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ على نبيّه هٰذه الآية قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**ما هذا يا جبريل؟**» قال: إنَّ اللَّهَ أَمَرَكَ أَنْ تَعْفُوَ عمَّن ظَلَمَكَ، وتُعْطِيَ مَن حَرَمَكَ، وتَصِلَ مَن قَطَعَكَ وقال البخاري: (**العُرْفُ**): المعروف، وأخرج عن ابن عباس ﷺ قال: قَدِمَ عُيَيْنَةُ بن حِصن بن حُذَيْفَةَ، فَنَزَلَ على ابن أخيه الحُرِّ بنِ قَيْس، وكان مِنَ النَفَرِ الذين يُدْنيهِمْ عُمَرُ، وكان القُرَّاءُ أَصْحَابَ مَجالِسِ عُمَرَ ومُشَاوَرَتِهِ، كُهولاً كانوا أو شباباً، فقال عُيَيْنَةُ لابن أخيه: يا ابنَ أَخي! لَكَ وَجْهٌ عِنْدَ هٰذا الأمير فاسْتَأْذِنْ لي عليه، قالَ: سَأَسْتَأذِنُ لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحُرُّ لِعُيَيْنَةَ، فأذِنَ لهُ عُمَرُ، فَدَخَلَ عليه، قال: هِي يا ابنُ الخَطَّاب! فَوَاللَّهِ ما تُعْطِينا الجَزْلَ، ولا تَحْكُمُ بيننا بالعَدْلِ، فَغَضِبَ عُمَرُ حَتَّى هَمَّ أَنْ يُوقِعَ به، فقالَ لهُ الحُرُّ: يا أميرَ المؤمنين! إنَّ اللَّهَ قال لنبيه ﷺ: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ

وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ وإنَّ هٰذا مِنَ الجاهِلينَ، واللَّهِ ما جاوزها عُمرُ حينَ تلاها عليه، وكان وقّافاً عندَ كتابِ اللَّهِ ﷻ. وقال بعضُ العُلماء: الناسُ رجُلان: فَرَجُلٌ مُحْسِنٌ، فَخُذْ ما عَفا لكَ مِن إحسانه، ولا تكلِّفُه فَوْقَ طاقتِهِ، ولا ما يُحْرِجُهُ، وإما مُسِيءٌ فمُرهُ بالمَعْرُوفِ، فإنْ تَمادَى على ضلالِه واسْتَعْصَى عليكَ، واسْتَمَرَّ في جَهْلِهِ فأعْرِضْ عنه، فَلَعَلَّ ذلكَ أن يَرُدَّ كيدَهُ، كما قال تعالى: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾﴾ [المؤمنون: 96] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: 34، 35] أي هٰذه الوَصِيَّة ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ فهٰذه الآياتُ الثلاث في الأعراف، والمؤمنون وحٰم السجدة لا رابع لَهُنّ، فإنه يُرْشِدُ فيهنّ إلى معاملة العاصي من الإنسِ بالمعروفِ بالتي هي أَحْسَنُ، فإن ذلك يَكفُهُ عما هو فيه من التَمَرُّدِ بإذنه تعالى، ولهٰذا قال: ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾.

49 ــ الغفّار

معناه

صِيغَة مبالغة لغافر، وقد تكون أبلغَ مِن (**غَفُور**) لِزيادَة مبناها، والأصلُ في المعنى واحِدٌ، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طه: 82] وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ ۖ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّارُ ﴿٦٦﴾﴾ [ص: 65، 66]. وقد ورد هٰذا الاسمُ في القرآن الكريم في خمسةَ مواضع لا غير، كما ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى الذي أخرجه الترمذي في «جامعه» والبيهقي في «الدعوات» عن أبي هريرة ﷺ.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّةُ الإسلام وفيلسُوفُه الإمام الفقيه الأصولي أبو حامد محمد بن

محمد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «المَقصِد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: **(الغفّار)** هو الذي أظْهَرَ الجميلَ وسَتَرَ القبيحَ، والذُّنُوبُ مِن جُملة القبائح التي سَتَرَها بإرسالِ السِتْرِ عليها في الدنيا، والتجاوُزُ عن عُقوبتها في الآخرة، والغَفْرُ هو السَتْرُ.

(وأوَّلُ سَتْرِهِ) على العَبْد: أنْ جَعَلَ مَفاتِحَ بَدَنِهِ التي تَسْتَقْبِحُها الأَعْيُنُ مَسْتُورةً في باطِنِه، مُغَطَّاةً في جمالِ ظاهِرِه. وكم بَيْنَ باطِنِ العَبْدِ وظاهِرِه في النظافَةِ والقَذَارَةِ، وفي القُبْحِ والجمال، فانظر ما الذي أظهَرَهُ وما الذي سَتَرَهُ.

(وسَتْرُهُ الثاني): أنْ جعَلَ مُسْتَقَرَّ خَواطِرِه المَذْمُومَةِ وإرادته القبيحة سَتْرَ قَلْبِهِ حتّى لا يَطَّلِعَ أَحَدٌ على سَتْرِهِ، ولو انكَشَفَ للخَلْقِ ما يخطُرُ ببالِهِ في مجاري وَسَاوِسِه، وما ينطوِي عليه ضميرُه مِنَ الغِشّ والخيانَةِ وسوءِ الظَنِّ بالناسِ لَقَتلوه، فانظر كيف سَتَرَ عن غَيْرِه أَسْرَارَهُ وعوراتِه.

(وستره الثالث): مغفرته ذنوبَه التي كان يَسْتَحِقّ الافتضاحَ بها على ملإِ الخَلْقِ، وقد وعده أن يبدلَ سيّئاته حَسَناتٍ لِيَسْتُرَ مَقابِحَ ذُنوبِهُ بِثَوابِ حسناته مهما ثَبَتَ الإيمانُ.

حظ العبد من هٰذا الاسم

أن يَسْتُرَ مِن غيرِه ما يُحِبُّ أن يَسْتُرَ منه، فقد جاء في الحديث الذي أخرجه مسلم في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يَسْتُرُ عَبْدٌ عبداً في الدنيا إلاّ سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ القِيامَةِ**». والمُغتابُ، والمُتَجَسِّسُ، والمُنْتَقِمُ، والمُكافِئُ على الإساءَةِ بِمَعْزِلٍ عن هٰذا الوصفِ، وإنما المُتَّصِفُ به مَن لا يُفْشِي من خَلْقِ اللَّهِ تعالى إلا أَحْسَنَ ما فيهم.

ولا يَنْفَكُّ مَخْلوقٌ عن كمالٍ ونَقْصٍ وعن قُبْحٍ وحُسْنٍ، فَمَن تغافل عن المقابيح وذكَرَ المحاسِنَ فهو ذو نَصِيب مِن هذا الاسم؛ كما رُوِيَ عن عيسَى عليه السلام: «أنه مرَّ مع الحواريّين على كَلْب مَيِّتٍ قد غَلَبَ نَتَنُه، فقالوا: ما أَنْتَنَ هٰذه الجيفة! فقال عيسى عليه السلام: ما أَحْسَنَ بَياضَ أسنانِه». تَنبيهاً على أن الذي يَنبغي أن يُذكَرَ مِن كُلِّ شيءٍ ما هو أَحْسَنُ) انتهى كلام الغزالي.

نبي عظيم عَفْوِهِ وحِلْمِهِ ﷺ

قال الله تعالى لنبيّه محمد ﷺ: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: 13] وقال سبحانه: ﴿فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي﴾ [آل عمران: 159].

كان ﷺ عظيمَ الحِلْم، لا يقابِلُ السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئَةِ، بل يعفو ويَغْفِرُ، وما انْتَقَمَ لِنَفْسِهِ من شيء قطّ، إلّا أنْ تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللّه، فينتقم لِلّهِ تعالى.

أخرج الشيخان البخاريُّ ومسلمٌ في «صحيحيهما» عن عائشة أم المؤمنين ﵂ قالت: ما خُيِّرَ رسولُ اللّهِ ﷺ بَيْنَ أَمْرَيْنِ إلّا أخذ أيسَرَهُما ما لم يكُن إثماً، فإن كان إثماً كان أبْعَدَ الناس منه، وما انْتَقَمَ رَسُولُ اللّهِ ﷺ لِنَفْسِه إلّا أن تُنْتَهَكَ حُرْمَةُ اللّهِ، فَيَنْتَقِمُ لِلّهِ.

ولقد اتّسع حِلْمُه ﷺ لجميع خلقِ اللّهِ تعالى، حتّى لأعدائه الذين آذوه. فلما كانت غزوَة أُحد، وكُسِرَت رُباعِيَتُه ﷺ، وجُرِح في شفته السُفْلَى، وشُجَّ في جبهته الشريفة حتى سالَ منه الدَّمُ، فجعل يمسحه لِئَلّا يَنْزِلَ على الأرض ويَقولُ: «**لَو وَقَعَ منه شيءٌ على الأرضِ لَنَزَلَ عليهم العَذابُ مِنَ السماءِ**» وشَقَّ ذلكَ على الصحابَة فقالوا: لَوْ دَعَوْتَ عليهم، فقال: «**إنما لم أُبْعَثْ لَعّاناً، ولكن بُعِثْتُ داعياً ورحمةً، اللهُمَّ اغفِرْ لِقَوْمِي فإنّهم لا يعلمونَ**».

ومِن مظاهِرِ حِلْمِهِ وعَظيمِ عَفْوَهِ ﷺ ما أخرجه ابن حِبّان في «صحيحه» والحاكم في «مستدركه» بإسناد رجاله ثقات عن عبد الله بن سلام، عن زيد بن سَعْنَةَ أحدِ أحْبارِ اليهود قال: لم يَبْقَ مِن عَلامات النُبُوَّةِ إلّا وقد عَرَفْتُه في وَجْهِ محمدٍ ﷺ حِينَ نظرتُ إليه إلّا اثْنَتَيْن لم أَخْبُرْهما فيه، يَسْبِقُ حِلْمُه جَهْلَهُ، ولا تَزيدُهُ شِدَّةُ الجهل عليه إلا حِلماً، فكنتُ أَتَلَطَّفُ له لأَنْ أُخالِطَهُ فأعرِفَ حِلْمَهُ وجَهْلَهُ، فابْتَعْتُ منه تَمْراً إلى أَجَلٍ، فأَعْطَيْتُهُ الثَمَنَ، فلما كان قَبْلَ مَجيءِ الأَجَلِ بيَوْمَيْن أو ثلاثة، أتيتُ محمداً ﷺ فأخذت بمجامع قَميصِهِ، ورِداؤُه على عُنُقِهِ، ونَظَرْتُ إليه بوَجْهٍ غليظ، ثم قلتُ: ألا تَقْضِيَنّ يا محمدٌ حَقّي؟ فواللّهِ إنّكم يا بَنِي عبد المُطّلِبِ مُطُلٌ ـ أي تؤخّرُون عن أداء الحقّ ـ فقال عمر: أي عَدُوَّ اللّهِ! تقولُ

لرسولِ اللَّهِ ﷺ ما أسمعُ؟ فواللَّهِ لَوْلَا ما أحاذِرُ فَوْتَهُ ـ أي مِنْ بَقاءِ الصُلْحِ بين المسلمين واليهود ـ لضَرَبْتُ بِسَيْفِي رأسَكَ، فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ وهو ينظُر إلى عمر بسُكونٍ وتَبَسُّم: **«أنا وزَيْدٌ كُنّا أَحْوَجَ إلى غيرِ هٰذا منكَ يا عمرُ، أَنْ تأمُرَني بِحُسْنِ الأداءِ، وتأمُرَهُ بِحُسْنِ المُطالَبَةِ»**. ثم قال: **«اذهَبْ يا عمرُ فاقْضِه حَقَّهُ وَزِدْهُ عِشْرين صَاعاً مَكانَ ما رُعْتَهُ»** ـ أي مُقابلَ فَزَعِهِ ـ. فَفَعَلَ ذلك عمرُ، قال زيدٌ: يا عمرُ! كلُّ عَلامات النبوة قد عرفتُها إلا اثنتين، فقد اخْتَبَرْتُه بهما، فاشهَدْ يا عُمَرُ أني قد رَضِيتُ باللَّهِ ربّاً وبالإسْلامِ دِيناً، وبمُحَمَّدٍ ﷺ نبياً.

50 ـ العَفُوُّ

معناه

مأخوذٌ من العَفْوِ، وهو: المَحْوُ وإزالَةُ الأَثَرِ، ومنه قولُهُمْ: عَفَتِ الريحُ آثَارَ الدِيَارِ، إذا أزالَتْها ومَحَتْها. فالعَفْوُ عَنِ الذَنْبِ: مَحْوُهُ وإزالَةُ أَثَرِهِ، وهو أَبْلَغُ مِنَ المَغْفِرَةِ؛ لأنها من الغَفْرِ، وهو السَتْرُ. فَاسْمُ اللَّهِ (العَفُوُّ) أي ذو العَفْوِ، وهو تَرْكُ المُؤَاخَذَةِ على ارتكابِ الذَنْبِ، وإزالَةُ أثره مِن صحائِفِ الأعمالِ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ [الحج: 60]، وقد وَرَدَ هٰذا الاسم في خمسة مواضِعَ من القرآن الكريم، كما جاء في الحديث الشريف الجامع لأسماء الله الحسنى.

أقوال العلماء في تفسيره

يقولُ حُجّة الإسلام أبو حامد الغزالي الشافعي في كتابه: «المَقْصِد الأسْنَى في شرْحِ أسماءِ اللَّهِ الحسنى» في تفسير هٰذا الاسم: (العَفُوُّ: هو الذي يمحو السَّيِّئات ويتجاوَزُ عن المعاصي. وهو قريبٌ مِنَ (الغَفُورِ) ولكنه أبلغُ منه، فإنّ الغُفْرَانَ يُنبِىءُ عَنِ السَتْرِ، والعَفْوُ يُنبِىءُ عَنِ المَحْوِ، والمَحْوِ أَبْلَغُ مِنَ السَتْرِ.

حَظُّ العَبْدِ منْ ذلك لا يخفَى، وهو أن يَعْفُو عن كلِّ مَنْ ظلَمَهُ، بل يُحْسِنُ إليه. كما يَرَى الله تعالى مُحْسِناً في الدنيا إلى العُصَاةِ والكَفَرَةِ غيرَ مُعاجِلٍ لهم بالعُقوبَةِ؛ بل رُبَّما يَعْفُو عنهم بأن يتوبَ عليهم، وإذا تابَ عليهم مَحَا سَيِّئاتِهِم، إذْ التائِبُ مِنَ الذَنْبِ كَمَنْ لا ذَنْبَ له، وهٰذا غايَةُ المَحْوِ للجِنايَةِ). انتهى كلام الغزالي.

ويقول الإمامُ المحدِّثُ اللغوي مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي، في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هذا الاسم: (العَفُوُّ هو (فَعُولٌ) مِنَ العَفْوِ، وهو التَجَاوُزُ عَن الذَّنْبِ وتَرْكُ العِقابِ عليه. وأَصْلُهُ المَحْوُ والطَمْسُ، وهو مِن أبنيَةِ المُبالَغَةِ، يقال: عَفا يَعْفِو عَفْواً، فهوَ عافٍ وَعَفُوٌّ.

ومنه حديث أبي بكر الصديق ﷺ الذي أخرجه الترمذي في «جامعه»، وابنُ ماجه في «سننه»، والإمام أحمد في «مسنده»، قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**سَلُوا اللَّهَ العفوَ والعافِيَةَ والمُعافاةَ**» فالعَفْوُ: مَحْوُ الذنوبِ، والعافيةُ: أن تَسْلَمَ مِن الأَسْقامِ والبَلايا، وهي الصِحَّة وضِدُّ المَرَضِ، والمُعافاةُ: هي أن يُعافِيَكَ اللَّهُ من الناسِ، ويُعافِيَهُم منك، أي يُغنيكَ عنهم ويغنيهم عنك، ويَصرِفُ أذاهُمْ عنك، وأذاكَ عنهم.

ومنه الحديث الذي أخرجه أبو داود والنسائي في «سننهما»، عن عبد الله ابن عمرو بن العاص ﷺ، أن رَسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**تَعَافَوُا الحُدُودَ فيما بينكم، فما بَلَغَني مِنْ حَدٍّ فَقَدْ وَجَبَ**» أي تَجاوَزُوا عنها، ولا ترفعوها إليَّ، فإنّي متى عَلِمتُها أَقَمْتُها.

ومنه الحديث الذي أخرجه البخاري في «صحيحه»، عن عبد الله بن الزبير ﷺ: «**أَمَرَ اللَّهُ نَبِيَّهُ أن يأْخُذَ العَفْوَ مِن أخلاقِ الناسِ**» وهو السَهْلُ المُتَيَسَّرُ، أيْ أَمَرَهُ أن يَحْتَمِلَ أخلاقَهم، وَيَقْبَلَ منها ما سَهُلَ وتَيَسَّر، ولا يَسْتَقْصِي عليهم).

الشقاء يَكْمُن في المعصية، والسعادة في الطاعة

قال اللَّهُ تعالى: ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾ [طه: 123، 124]، إن الشقاء ثَمَرَةُ الضَلالِ ومَعْصِيَةِ اللَّهِ ﷻ، والحياةُ المَقْطُوعَةُ الصِلَةِ باللَّهِ ورَحْمَتِهِ الواسِعَةِ ضَنْكٌ مهما يَكُن فيها مِن سَعَةٍ ومَتاعٍ! إنه ضَنْكُ الانْقِطاعِ عَنِ الاتّصالِ باللَّهِ، والاطمِئنانِ إلى حِماهُ، ضَنْكُ الحِرْصِ على ما في اليَدِ والحَذَرِ مِنَ الفَوْتِ، ضَنْكُ الجَرْي وراءَ بارِقِ المَطامِعِ والحَسْرَةِ على كُلِّ ما يَفُوتُ، وما مِن مَتاعٍ حَرامٍ إلّا ولهُ

غَصَّةٌ تعْقُبُه، وعَقابيلُ تَتْبَعُهُ، وما يَضِلُّ الإنسانُ عَن هُدَى اللَّهِ إلا وَيَتَخَبَّطُ في القَلَقِ والحَيْرَةِ والانْدِفاعِ من طَرَفٍ إلى طَرَفٍ، لا يَسْتَقِرُّ ولا يتوازَنُ في خُطاهُ، ثم تأتي الشَقْوَةُ الكبرَى في دارِ البَقاءِ والخُلودِ.

ومَنِ اتَّبَعَ هُدَى اللَّهِ وأطاعَهُ فهو في نَجْوَةٍ مِنَ الضَلالِ والشقاء، والحيرَةِ والقَلَقِ، فما يَشْعُرُ القلبُ بطُمَأْنِينَةِ الاسْتِقْرَارِ إلّا في رحابِ اللَّهِ، وما يُحِسُّ راحَةَ الثِقَةِ إلّا وهو مُسْتَمْسِكٌ بالعُرْوَةِ الوُثْقَى التي لا انْفِصَامَ لها.

إنَّ نِعْمَةَ الإيمان والطاعةِ في كَنَفِ ربٍّ عَفُوٍّ غَفُور تُضاعِفُ الحياةَ طولاً وعَرْضاً وعُمقاً وسَعَةً، والحِرْمَانُ منها شَقْوَةٌ لا تَعْدِلُها شَقْوَةُ الفَقْرِ والحِرْمَانِ، إن الإيمانَ باللَّهِ وَحْدَهُ والقِيامَ بطاعَةِ أوامِره وامتثالِها هو مَنْهَجُ حَياةٍ كامِلٍ، لا مُجَرَّدَ عَقيدة تَغْمُرُ الضَمِيرَ وتَسْكُبُ فيه النورَ. وإنَّ في هٰذا المَنْهَج من المُواءَمَةِ مع الفِطْرَة البَشَرِيَّةِ ومع الحاجاتِ الحقيقية لهٰذه الفِطْرَةِ، ما يملأُ الحياةَ سَعادَةً ونوراً وطمأنينةً وراحَةً. كما أنّ فيه من الاسْتِقْرَارِ والثَّباتِ عاصِماً مِن الوقوع في القَلَقِ والحِيرَةِ والتَخَبُّطِ الذي تتعرّضُ له المجتمعاتُ المادِّيَّةُ التي شَرَدَت عن مَنهج اللَّهِ.

ومِن المُفيد هنا أن نذكُرَ شيئاً عن واقع تلك المجتمعات التي قطعت صِلَتها باللَّه وتَنَكَّرت لمنهجه وأطلقت لشهواتها العَنانَ، ففي هٰذه المجتمعات ينطلق الناسُ أفراداً وجماعات في سباقٍ رَهيب لإحرازِ أكبر حَظّ مُسْتَطاعٍ مِن حُطام الدنيا، ولو على حساب صحّتهم النفسيّة، ويُسبِّبُ القَلَقُ الذي يعتصر المجتمعات الغربية خسائر تزيد على عشرة آلاف ضعف عمّا تُسَبِّبُه أخطرُ الأَوْبِئَةِ الفتّاكةِ، فهناك شخص من كل عشرةِ أشخاصٍ مُعَرَّضٌ للإصابة بانهيارٍ عَصَبِيّ مرجعه إلى القلق، وهناك شخص من كل عشرين سَوف يقضي جانباً مِن حياته في مِصَحٍّ للأمراضِ العَقلية، بل إن ثلث رجال الأعمال الناجحين يُصابونَ بأمراض عُضالة أساسها التوتر العصبي. وفي هٰذه المجتمعات يرتفع ضغط الدم كلما ازداد الهَمّ، وترتفع نِسبة سُكّرِ الدم كلّما هبطت أسعار الأسهم والسندات وصدق اللَّهُ القائل: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا ۝٥٩﴾ [مريم: 59].

51 ــ الحَلِيمُ

ذكرنا أن الناسَ ثلاثة أنواع: سابقٌ بالخيرات، ومُقْتَصِدٌ، وظالِمٌ لنفسه مُسْتغرِقٌ في المعاصي والذنوب، وعدمِ الرجوعِ إلى اللَّهِ تعالى بتوبةٍ أو نَدَمٍ، وإذْ يحمِلُ هؤلاء أَوْزَارَهُم على ظهورهم، مُكابرين مُعانِدين، غيرَ مُكترثين ولا وَجِلينَ، سَيَجِدُون أنفسَهم بين يَدَيْ **(الحَلِيمِ)** **(الصَّبُورِ)** أو **(المُنتقم)**، الذي يُعاقِب على السيئات بمثلها.

معنى الحليم

أي الذي لا يُعجِّلُ بالانتقام مِن عبادِه المُجرمين، لِيَفْسَحَ لهم مجالات التَّوْبَةِ والنَّدَم، ولِيُقيمَ الحُجَّة عَليهم بأنهم لم يُصلِحوا قُلوبَهم وأعمالَهم، بَعْدَ الحِلْمِ الطَّويلِ بهم على أنه لا يعجّل بتنفيذ العقاب مَن لا يَخافُ الفَوْت. كيف يخافَ الفوتَ ربُّنا سُبحانه، والأرضُ والسماوات جميعاً قَبضَتُه. وفي معنى أنه تبارك وتعالى حليم، قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النحل: 61]، ووصفَ اللَّهُ نفسه بأنه حليمٌ فقال في مُحكم كتابه الكريم: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا﴾[الأحزاب: 51]، وقد ورد هٰذا الاسم في القرآن الكريم في (15) موضعاً.

أقوال العُلماء في تفسيره

قال الإمام أبو حامد الغزالي الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «المَقْصِد الأَسْنَى في شرح أسماءِ اللَّهِ الحُسنى» في تفسيره: (الحَليمُ هو الذي يُشاهِدُ مَعْصِيَةَ العُصَاةِ ويَرَى مُخالَفَةَ الأمْرِ، ثم لا يَسْتَفِزُّه غَضَبٌ ولا يَعْتَريه غَيْظٌ، ولا يَحْمِلُه على المُسَارَعَةِ إلى الانتِقام معَ غايَةِ الاقْتِدَارِ عَجَلَةٌ ولا طَيْشٌ، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45]. وحَظّ العَبْدِ مِن وَصْفِ الحَليمِ ظاهِرٌ. فَالحِلْمُ مِن مَحاسِنِ خِصَالِ العِبادِ).

وقال الإمامُ المُحدِّثُ اللغوي أبو السعادات مجد الدين المبارك بن محمد ابن

الأثير الجزري الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه: «النهاية في غريب الحديث» في تفسير هٰذا الاسم: (الحَلِيمُ في أسماءِ اللَّهِ تعالى هو الذي لا يَسْتَخِفُّه شَيْءٌ مِن عِصْيانِ العِبادِ، ولا يَسْتَفِزُّه الغَضَبُ عليهم، ولكنه جعل لكل شيءٍ مِقْداراً فهو مُنْتَهٍ إليه.

وفي حديث صلاةِ الجماعَة الذي أخرجه الإمام مُسْلِمٌ في «صحيحه»، عن أبي مَسْعُودٍ البَدْرِيّ ﷺ، قال: كان رسولُ اللَّهِ ﷺ يَمْسَحُ مَناكِبَنا في الصلاةِ ويَقولِ: «**اسْتَوُوا ولا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلوبُكُمْ، لِيَلِنِي مِنْكُم أولو الأَحْلامِ والنُهَى، ثمَّ الذين يَلُونَهُم، ثُمَّ الذين يَلونَهُم**»، ومعنى أولو الأَحلام، أي: ذَوُوْ الأَلْبابِ والعُقولِ، واحِدُها: (**حِلْمٌ**) ـ بالكسر ـ وكأنه من الحِلْمِ، أي الأَنَاةِ والتَثَبُّتِ في الأمور، وذلك من شِعارِ العُقَلاءِ.

وفي حديث مُعاذٍ ﷺ، الذي أخرجه الأئمة أبو داود، والترمذي والنسائي في «سُننهم»، والإمام أحمد في «مسنده»: «أن رسولَ اللَّهِ ﷺ أمَرَهُ أن يأخُذَ مِن كُلِّ حالِمٍ ديناراً»، يعني: الجِزْيَةِ التي فرضها اللَّهُ على أهلِ الكتاب، اليَهودِ والنَصَارَى الذين يعيشون في بلاد المُسلمين وتحت حكمهم، مُقابل حِمايتهم، يدفعونها للمسلمين أَذِلّاءَ صاغِرِينَ؛ لأنهم لم يُؤمنوا باللَّهِ ورسوله، ولم يدخُلوا في دين الإسلام فَيَدْفَعوا حقّ الله في المالِ وهو الزكاة، وأرادَ بالحالِم في الحديث مَنْ بَلَغَ الحُلُمَ وجَرَى عليه حُكمُ الرجالِ.

ومنه الحديثُ الذي أخرجه الإمامُ البخاري في «صحيحه»، عن أبي سَعيدٍ الخُدْرِيّ ﷺ، أنَّ رسولَ اللَّهِ ﷺ قال: «**غُسْلُ يَوْمِ الجُمُعَةِ وَاجِبٌ على كُلِّ مُحْتَلِم**»، أي بالِغٍ يُدْرِكُ.

ومنه الحديث الذي أخرجه البخاريُّ في «صحيحه» في كتاب التعبير، عن أبي قتادَة ﷺ، عن النبيّ ﷺ قال: «**الرُؤيا الصادِقَةُ مِنَ اللَّهِ والحُلْمُ مِنَ الشيطان**»، الرُؤيا والحُلْمُ: عِبارَةٌ عمّا يَراه النائِمُ في نَوْمِه من الأشياء، لكن غَلَبَت الرُؤيا على ما يَراهُ مِنَ الخَيْر والشيءِ الحَسَن، وغَلَب الحُلْمُ على ما يَراهُ من الشَّرِّ والقَبيحِ). انتهى كلام ابن الأثير.

أقوال المفسّرين

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ

غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: 235]، تَوَعدَ اللَّهُ عِبادَهُ على ما يَقَعُ في ضمائِرِهم مِن أُمور، وأَرْشَدَهُم إلى إضْمارِ الخَيْرِ دُونَ الشَّرِّ، ثمَّ لَمْ يُؤْيِسْهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ، ولم يُقَنِّطْهُم مِن عائدته فقال: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾.

أثر هٰذا الاسم على العبد

إنَّ من عَلِمَ أنَّ الله حَلِيمٌ، لا يُعَجِّلُ عِبَادَهُ بالعُقوبَةِ، بل يُمْهِلُهُم حتى يَتُوبُوا ويَرْجِعُوا إلى رُشْدِهم، وجب عليه أن لا يَغْتَرَّ بِحِلْمِ اللَّهِ وعَفْوِهِ، وأن لا يتمادَى في غَيِّهِ وطغيانه ومَعاصِيهِ، طَمَعاً بِعَفْوِ اللَّهِ ورحمته، فإنَّ ذَلك يورِثُ غَضَبَ الرَّبِّ سُبْحَانَه، والعَرَبُ تَقولُ: «**اتَّقِ غَضْبَةَ الحَلِيم**»، أي إن الحَليمَ الذي أَمْهَلَ بِعَفْوِهِ، ولم يُعَجِّل انتقامَه، إذا لَمَسَ مِمّن يُعامله طَيْشاً واسْتِخفافاً فإنه يَغْضَبُ، وغَضَبُه حينئذٍ لا يكون سَهْلاً، فكما أن اللَّهَ رؤوفٌ رحيم، فإنه شَديدُ العِقابِ، وعَذابُه أَليمٌ، فهو رَحيمٌ بالتائبين الذين رَجَعُوا عن ضلالهم ومعاصيهم، ولكنه شديد العِقاب على مَن استرسل في ضلاله وتمادى في غيِّه ومعاصيه، ولم تنفعه مَوْعِظَةٌ ولا زَجْرٌ ولا تخويف.

وأيضاً وجب على العبد أن يكون متخلقاً بهٰذا الخلق الكريم، خُلُقُ الحِلْمِ والأناةِ فَيَصْبِرُ على جهل الجاهلين، وسَفَه السفهاء، فلا يُبادِرهم بالعقوبة، بل يَصْبرُ على أَذاهم ويُمْهِلُهم، مُمْتَثِلاً قولَ الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف: 199].

53 ــ الصَّبُور

معناه

الصَبُورُ على وزن (**فَعُول**) من الصَبْر، والمُرادُ منه بالنسبة إلى الله تعالى: عَدَمُ الاستعجالِ في العِقابِ والمُؤاخَذَةِ، فَيكونُ بمعنى الحِلْم، فمعنى الصبورِ: الذي لا يَسْتَعْجِلُ في مُؤاخَذَةِ العُصَاةِ، ومُعاقَبَةِ المُذْنِبينَ، أو بمعنى أَعَمّ: هو الذي لا تَحْمِلُهُ العَجَلَةُ على المُسَارَعَة إلى فِعْلِ الشيء قَبْلَ أوانِهِ.

وهٰذا الاسم لم يرد في القرآن الكريم بهٰذه الصيغة، وإنما هو مُجْمَعَ عليه،

وقد ورد في الحديث الشريف الجامع لأسماء اللَّهِ الحسنى الذي أخرجه الترمذي والبيهقي في «الدعوات»، عن أبي هريرة ﷺ، وفي الحديث المتَّفق عليه عند الشيخين البخاريّ ومسلم في صحيحيهما، عن أبي موسى الأشعري ﷺ، قال: قال النبيُّ ﷺ: **«ما أَحَدٌ أَصْبَرُ على أَذًى سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ، يَدَّعُونَ لهُ الوَلَد، ثم يُعافيهم ويرزقُهُم»**، أي ما أحد أَشَدُّ حِلماً عن فاعل ذلك وترك المعاقبة عليه.

أقوال العلماء في تفسيره

يقول حُجَّة الإسلام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحُسْنَى»: (الصَّبُورُ هو الذي لا تحملهُ العَجَلَةُ على المسارَعَةِ الى الفِعلِ قَبْلَ أوانِهِ، بل يُنَزِّلُ الأُمُورَ بِقَدَرٍ مَعْلوم، ويُجريها على سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ، لا يؤخِّرُها عن آجالِها المُقَدَّرَةِ لها تأخِيرَ مُتكاسِلٍ، ولا يُقدِّمها على أوقاتها تقديمَ مُسْتَعْجِلٍ، بَلْ يُودِعُ كُلَّ شَيْءٍ في أوانِهِ على الوَجْهِ الذي يجِبُ أن يَكونَ كما يَنْبَغي، وكُلُّ ذلك مِن غَيْرِ مُقاساةِ دَاعٍ على مُضادَّةِ الإرادَة.

وأما صَبْرُ العَبْدِ، فلا يَخلو عن مُقاسَاةٍ؛ لأن معنى صَبْرِهِ هو ثبات داعي العَقْل أو الدين في مقابلَةِ داعي الشَّهْوَةِ أوِ الغَضَب، فإذا جاذَبَهُ داعِيَان مُتضادّان، فَدَفَعَ الدَّاعِي إلى الإقدام والمُبادَرَةِ، ومَالَ إلى باعِث التأخيرِ، سُمِّيَ: صَبُوراً، إذْ جَعَلَ باعِثَ العَجَلَةِ مَقْهوراً.

وباعِثُ العَجَلَةِ في حقّ اللَّهِ تعالى مَعْدُومٌ، فهو أَبْعَدُ عَنِ العَجَلَةِ مِمَّنْ باعِثُهُ مَوْجُودٌ ولكنه مَقْهُورٌ، فهو أَحَقُّ بهٰذا الاسمِ بعد أن أُخرجت عن الاعتبار تناقُضَ البَواعِثِ ومُصابرَتها بِطَريقِ المجاهَدَةِ).

ويَقول الإمام اللغوي المُحدِّث مَجْدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (الصَّبُورُ في أسماءِ اللَّهِ تعالى هو الذي لا يُعاجِلُ العُصاةَ بالانتقام، وهو مِن أَبْنِيَة المُبالَغَة، ومعناه قريبٌ مِن معنى الحليم، والفرق بينهما أن المُذْنِبَ لا يَأمَنُ العُقوبَة في صِفَةِ الصَّبُورِ، كما يأمَنُها في صِفَةِ الحَليم.

وفي حديث الصَّوْم الذي أخرجه أبو داود، وابنُ ماجه في سننهما، والإمامُ

أحمد في «مسنده»، عن مجيبة الباهلية، عن أبيها عبد الله بن الحارث الباهلي أنه أتى رسولَ اللَّهِ ﷺ ثم انطلق فأتاهُ بعد سنةٍ وقد تغيَّرَتْ حالُه وهيئتُه، فقال: يا رسولَ اللَّهِ! أما تعرِفُني؟ قالَ: «**ومَنْ أنتَ؟**» قال: أنا الباهِلِيُّ الذي جِئْتُكَ عامَ الأوَّل، قال: «**فما غيَّرك وقد كنتَ حَسَنَ الهيئةِ؟**» قال: ما أكلتُ طعاماً إلاّ بِلَيْلٍ مُنذُ فارَقْتُكَ، فقالَ رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**لِمَ عَذَّبْتَ نَفْسَكَ؟**»، ثم قال: «**صُمْ شَهْرَ الصَبْرِ، ويوماً مِن كُلِّ شَهْرٍ**»، قال: زِدْنِي فإنّ بي قُوَّةً، قال: «**صُمْ يَوْمَيْن**»، قال: زِدني، قال: «**صُمْ ثلاثَةَ أيام**»، قال: زِدْني، قال: «**صُمْ مِن الحُرُم واتْرُكْ، صُمْ مِنَ الحُرُمِ واتْرُكْ، صُمْ مِن الحُرُم واتْرُكْ**»، ـ وقال بأصابعه الثلاثَة فضمّها ثم أرسلها ـ، وشَهْرُ الصَبْر في هٰذا الحديث يعني: به شَهْرَ رمضان، وأصلُ الصَبْرِ الحَبْسُ، فسُمِّيَ الصِيَامُ صَبْراً: لما فيه مِن حَبْسِ النفْسِ عن الطعام والشراب والنِكاح. والحُرُمُ في الحديث، أي الأشهر الحرم، ثلاثة سرد متتالية وهي: ذو القِعْدة، ذو الحِجَّة، والمحرَّم، وواحدٌ فَردٌ وهو رَجَب.

أثر هذا الاسم على العبد

إن مَن عَلِمَ أنّ اللَّهَ حَليمٌ صَبُورٌ، وَجَبَ عليه أن يَتَخَلَّقَ بهٰذا الخُلُق الكريم، وقد أَمَرَ اللَّهُ تعالى عباده المُؤْمنين بالصَبْر على الأعداء والتمسُّك بالدين فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: 200].

الصَبْرُ قوَّةٌ خُلُقِيَّةٌ مِن قُوَى الإرادة، تمكّن الإنسانَ من ضَبْطِ نفسه لتحمُّل المَتاعِب والمَشَقّات والآلام. والصَبْرُ والثباتُ والمثابَرَةُ مِن مَعالِم العَظَمَةِ وشارات الكمال، والحياةُ لا يَنْهَضُ برسالتها الكبرى ويصلُ بها إلى أبعد الغايات من العِلْم والعَمَل والرُقيِّ والحضارة إلا أُناسٌ أفذاذٌ صابرون، بل إن سائِرَ ما ينعم به البَشَرُ من النِعَم المادِّيَّةِ والرُّوحيَّة هو ثَمَرَةُ الصَبْرِ والكفاح، ونتيجة الدأب والمثابَرة.

إنَّ الصَّبْرَ هو منارةُ السَبيل إلى اللَّه، والمُوصِلُ إلى الإمامَةِ في الدين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [السجدة: 24]، وهو مِن علامات الإيمان، ولَنْ يفوزَ أَحَدٌ بدرجات القُرْب عند الله تعالى إلا عن طريق الصبر، قال اللَّهُ تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا

يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: 142]، وقد أوصى الإسلام بالصَبْرِ، وورد ذكرُه في القرآن الكريم في سبعين موضعاً، ففي بعض الآيات يُخْبِرُ أنه مع الصابرين بتأييده وتوفيقه قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: 153]، والصَبْرُ مِن أفضل نِعَم اللَّهِ على العَبْد، فقد أخرج البخاريُّ في «صحيحه» عن أبي سعيد الخُدْرِي ﷺ: «أن ناساً مِنَ الأنصار سألوا رسولَ اللَّهِ ﷺ فأعطاهُم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم حتّى نَفِدَ ما عندَه، فقال: ما يكونُ عندي من خَيْرٍ فلن أَدَّخِرَه عنكم، ومَن يَسْتَعْفِف يُعِفَّهُ اللَّهُ، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللَّهُ، ومَن يَتصبَّرْ يصبّرهُ اللَّهُ، وما أُعْطِيَ أَحدٌ عطاءً خيراً وأَوْسَعَ مِن الصَبْرِ».

فضل الصبر

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: 142].

أنواع الصبر

للصبر أنواع ثلاثة: الصَبْر على أداء الطاعات وفعل الواجبات، والصَبْرُ عن المعاصي، والصبر على ما يصيب الإنسان في نفسه، أو ماله، أو أهله من مصائب الحياة.

(النوع الأول): أما صبر الإنسان على أداء الطاعات وفعل الواجبات، فالإنسان المؤمن الطائع يجتهد في عبادة ربه، ويُقبل على الصلاة والصيام والزكاة والحجّ، وطلب العلم وسائر العبادات بهمّة ونشاط، ولكنه قد ينتابُه الفُتورُ في طاعة الله تعالى أحياناً، أو تتغير أحواله وأوضاعه الاجتماعية أو النفسية، فينبسط مرّة، وينقبض أخرى، ويكون منشرحاً أحياناً، وأخرى مُسْتاءً مُنزعِجاً مِنْ تَغَيُّر أوضاعه في الحياة، وما يُلاقيه فيها مِن متاعب ومصاعب، وما يواجهه من الناس من أذًى وكيد وشدَّة، ولكن هٰذه المصاعِب يجب ألاّ تصرِفُه عن طاعة ربه، وتُضعِفُ إيمانه، فكم مِن إنسان ضعيف الإيمان، نَكَسَ على عَقِبَيْه عند الشدائد، وتراجع القَهْقَرى، وفقد صَبْره وضعفَ إيمانُه بسبب تعرّضِهِ للفِتَن والمَصاعب،

وكم من إنسانٍ ارتَدَّ عن دينه ولَحِقَ بِصُفوفِ أَعْدَاءِ الإسلام، وناصَبَ المسلمين العداءَ والكَيْدَ، فانقلبَ عَدُوّاً بعد أن كان عُضواً في المجتمع الإسلامي، واللَّهُ يَبْتَلِي عِبادَهُ بالفِتَن والمِحَن ليعلم الصادِقَ من الكاذب، قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران: 142] .

فالمؤمِنُ دائماً بحاجَة إلى سلاحٍ يتسَلحُ به في مواجهة الصِعَاب، ولا يوجدُ أَمْضَى مِنْ سِلاحِ الصَبْرِ ليَنْشَطَ في اسْتِمرار طاعَةِ ربّه، قال اللَّهُ تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: 132].

(النوع الثاني) وأما صَبْرُ الإنسان عن المَعاصِي، أو عمّا يحِبُّه من شهواتِ الدُنيا وملذّاتها، وذلك بهجرها، ومجاهدة النفسِ في تركِها، مما يَسْمُو بها ويُقَرِّبُها إلى خالِقها. قال أَنَسٌ ﷺ: «الصَبْرُ صَبْرَان: صَبْرٌ عِند المصيبة فَحَسنٌ، وصَبْرٌ على ما حرَّمَ اللَّهُ عليكَ، فَتُمْسِكُ نَفْسَكَ عنه، وذلك أفضل». ومَن لم يصبر على المعاصي واتَّبع هواه فهو معرّض للهلاك، قال اللَّهُ تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: 37 ـ 40].

(النوع الثالث) وهو صَبْرُ الإنسان على ما يُصيبُه في نفسه، أو مالِهِ، أو أهله، أو منزلته مِن مصائِبِ الحياة وشدائِدها، والرِّضَى بقضاءِ اللَّهِ وقَدَرِهِ عن اقتناع.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۟ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: 155 ـ 157].

مقاماتُ الصبر

للصَبْرِ مقاماتٌ شتّى، وشُعَبٌ مُتَعَدِّدة، منها:

1 ـ الصَبْرُ في مواطِن الحق، واحتمال الصِعاب مِن أجل تبليغ الإسلام، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإزالته، قال تعالى: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٧﴾ [لقمان: 17]، وأخرج البخاري في «صحيحه» عن خبَّاب بن الأَرَتِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «**كان الرجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُم يُحْفَرُ له في الأرض، فَيُجْعَلُ فيه، فَيُجَاءُ بالمِنشار فَيُوضَعُ على رأسِهِ، فَيُشَقُّ باثنتين، ما يَصُدُّه ذَلكَ عن دينه، ويُمشَطُ بأمْشاطِ الحَديدِ ما دُونَ لَحْمِهِ مِن عَظْمٍ أو عَصَبٍ، وما يَصُدُّه ذلك عن دينه**».

2 ـ ومِن شُعَبِ الصَبْر احْتِمَالُ أذَى الغَيْر ومُقابَلَتُهُ بالعَفْو والمُسَامَحَةِ، قال تعالى: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبۡتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرۡتُمۡ لَهُوَ خَيۡرٞ لِّلصَّٰبِرِينَ ١٢٦﴾ [النحل: 126].

3 ـ ومِن أعلى مَقاماتِ الصبر، الصَبْرُ عند نزول النَّوائِب، كَمَوْتٍ، أو ضياعِ مالٍ، وضعْفِ صحّة، وفُقدان عضو من أعضاء البَدَن أو شلله. وهٰذا يقتضي حَبْسَ النَفْسِ عن الجَزَعِ، واللسانِ عن الشَّكْوَى، والجوارِح عن فعل ما يُذَمّ، وانتظارِ الفَرَجِ دونَ ضَجَرٍ، وأن لا يُغَيِّرَ عادَة من عاداته في هيئته، ولا في أكله، ولا في ملبسه، ولا في مظهر بيته، بل يبقى المرءُ على عاداته إظهاراً لِرضاهُ بقضاءِ اللَّهِ تعالى.

ولا يتنافَى مع الصَبْرِ حُزْنُ القَلْبِ ولا دَمْعُ العَيْنِ، فقد أخرج الإمام مسلم في «صحيحه»، عن عبد اللَّهِ بن عمر ﷺ، أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ اللَّهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ العَيْنِ، ولا بحُزْنِ القَلْبِ، ولكن يُعَذِّب بهٰذا**» ـ وأشار إلى لسانه ـ «**أو يَرْحَمُ**»، وأخرج ابنُ ماجه في «سننه» قال: لما توفي إبراهيمُ ابنُ رسولِ اللَّهِ ﷺ، بكى ﷺ، وقال: «**تَدْمَعُ العَيْنُ، ويَحْزَنُ القَلْبُ، ولا نَقُولُ ما يُسْخَطُ الرَّبُّ**».

إن الصَبْرَ في مستواه الرفيع ثمرةٌ من ثمرات الفهم عن الله، وتَدَبُّرِ حِكْمَتِهِ في تَصريف الأمور، وامتحان عبادِه في هٰذه الحياة، وهو ثمرة من ثِمارِ الرِضَى عن الله فيما تجري به مَقاديره، لذلك فهو ضياءٌ ونور لصاحبه، كما قال رسولُ اللَّهِ ﷺ: «**الصَّبْرُ ضياءٌ**» (أخرجه مسلم).

53 ـ المُنْتَقِم

معناه

هو بمعنى: المُعاقِب للعُصَاةِ والمذنبين، الذين لم يَسْتَغْفِرُوا مِن ذنوبهم، فلم يَشملهم عَفْوُ الله ولا غفرانه، وأصل النقمة: شِدَّة كراهية القبيح. ومَن عَرَفَ أن اللَّهَ سينتقم منه ويُعاقِبُه إذا هو أَصَرَّ على مُخالفته ومعصيته تعالى، ارْتَدَعَ عَنِ المَعاصِي، واسْتَغْفَرَ وأنابَ. وفي أنه تبارَك وتعالى ذو انتقام، قال: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم: 47]. وفي وصفه تبارك وتعالى بأنه منتقم، قال: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾[السجدة: 22].

أقوال العلماء في تفسيره

يقول الإمام الغزالي في «المقصد الأسنى في شرح أسماء اللَّهِ الحسنى»: (المنتقم هو الذي يَقصِمُ ظهورَ العُتَاةِ، ويُنكلُ بالجُناةِ، ويُشَدِّدُ العِقابَ على الطُغاةِ، وذلك بعد الإعذار والإنذار، وبعد التمكن والإمهال، وهو أَشَدُّ للانتقام من المعاجَلة بالعقوبَة.

المحمودُ من انتقام العَبْدِ أن يَنْتَقِمَ مِنْ أعداءِ الله تعالى، وأعدى الأعادي نَفْسُه، وحَقُّه أن ينتقمَ منها مهما قارفَ معصية، أو أخلّ بِعِبَادَة، كما نُقِلَ عن أبي يزيد أنه قال: تكاسَلَتْ عليَّ نفسِي في بعض الليالي عن بعض الأوراد، فعاقَبْتُها بأن منعتُها الماءَ سنةً). انتهى كلام الغزالي.

ويقولُ الإمام مجدُ الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ابن الأثير الجزري الشافعي في كتابه «النهاية في غريب الحديث»: (المُنتَقِم هو المبالِغ في العقوبة لمن يشاء، وهو على وزن (مُفْتَعِل) مِن نَقَمَ يَنْقِمُ، إذا بَلَغَتْ به الكراهَةُ حَدَّ السُخْطِ.

ومنه الحديث الذي أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»، عن عائشة ﵂ قالت: «ما انتقم رسولُ اللَّهِ ﷺ لنفسه قَطّ، إلّا أن تُنْتَهك مَحارِمُ اللَّهِ»، أي ما عاقَبَ أحداً على مكروه أتاه مِن قِبَلِه.

انتقام الله من أعدائه

في القرآن الكريم قصص كثير عن الأمم السابقة، ضَلَّت عن سَبِيل ربها،

فأرسل اللَّهُ لها رُسُلاً وأنبياء ليَهْدُوها ويرشدوها إلى ربها وطاعته، فلما كَذَّبَت الرسلَ، وَرَفَضتْ هُدَى اللَّهِ، انتقم اللَّهُ منها وأهلكها، وجعلها عِبْرَةً للمعتبر، فهؤلاء قَوْمُ نوح عليه السلام، قال اللَّهِ تعالى عنهم: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾ أُبَلِّغُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَ عَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأعراف: 59 ـ 64].

وتتكرّر الهداية ويتكرّر التكذيب فالانتقام مَعَ مَنْ بَعْدِ قوم نوح: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ﴾[الأعراف: 65]، ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: 72] ـ ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ﴾ [الأعراف: 73]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأعراف: 78] ـ ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: 80]، ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾[الأعراف: 84]، ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأعراف: 91] .

ثم يُعَقِّبُ اللَّهُ على تكذيبهم بقوله: ﴿تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوا۟ بِمَا كَذَّبُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ ۖ وَإِن وَجَدْنَآ أَكْثَرَهُمْ لَفَٰسِقِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأعراف: 101 ـ 102].

أثر أسماء اللَّهِ الحسنى التي تدخل في باب علاقة المكلَّفين بخالِقهم:

إنَّ مَن يُلاحظ باستمرار، مُلاحَظَةً تَحَقُّق وتَبَصُّر، ما تدُلُّ عليه أسماء اللَّهِ: (المَلِك، الهادي، الحَكَم، العَدْل، المُقْسِط، الحميد، الشَّكُور، التواب،

الغَفُور، الغَفّار، العَفُوُّ، الحليم، الصَّبُور، المُنْتَقِم)، ويلاحظُ مع ذلك أن اللَّهَ هو العليمُ الخبير، الذي لا تَخْفَى عليه خافِيَةٌ، وهو القادِرُ الذي لا يُعجزُهُ شيءٌ، فإنه لا بُدّ أنْ يَخشع أمام اللَّهِ مُعترفاً له بتمام الملك، راضياً بأمره ونهيه، ساعياً إلى مرضاته.

فإذا جاءه الهُدَى من ربه اتَّبَعَهُ مُطمئن القلب، مُسَلِّماً تسليماً، وإذا حَكَمَ اللَّهُ عليه بحُكم رضيَ بحكمه، ولم يُعَقِّب عليه بغير الثناء والإجْلالِ، ثم إذا سَعَى سَعْيَه عَلِمَ أنّ اللَّهَ لا يُضيعُ له أجْرَ عمله؛ لأنه العَدْلُ، ولا يَظلِمُه مثقال ذرّة؛ لأنه المُقْسِطُ بل سَيَمْنَحُهُ على الحَسَنَةِ عشرَ أمْثالِها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضْعَافٍ كثيرة؛ لأنه تعالى الحميدُ الشَكورُ، لِذا فهو يُضاعِف من أعماله الصالحة لِينالَ من رفيعِ الدرجاتِ عند الله.

على أنه إذا تَغَلَّبَتْ عليه نَفْسُه فانزلَقَ إلى المَعْصِيَةِ، فإنه أسْرَعُ ما يَعُودُ إلى الاسْتِغفارِ، ويؤوبُ إلى النَدَم والتَوْبَةِ، طامِعاً بِتَوْبَةِ اللَّهِ عليه، وغَفْرِ ذنوبه، والعَفْوِ عنها؛ لأنه يعلمُ أنّ اللَّهَ هو التوّابُ، الغَفُورُ الغَفارُ العَفوُّ، كما أنه لا يَغترُّ بتأخير معاقبة اللَّهِ له؛ لأنه يعلمُ أن اللَّهَ حَليمٌ صَبُورٌ، يؤخِّرُ العُقُوبَة، ويُمدُّ في آجالِ فُرَص التَوْبَةِ، ليعودَ المُسِيءُ إلى رُشْدِهِ، ويَسْتغْفِرَ مِن ذنبه، أما إذا تمادَى المُسِيءُ في غَيِّه، فإنه يأخذه أَخْذَ عزيزٍ مُقْتَدِرٍ؛ لأنه تعالى يُمْهلُ ولا يُهْمِل.

ثم هو لا يتجرّأ على اللَّهِ بالعناد والاستِكْبار والمعاصي؛ لأنه يعلمُ أنّ اللَّهَ منتقِمٌ قَهّارٌ، شديدُ العقاب.